جوانب من

قضايا الأمة العربية

الجزء الأول

« فى الاستعمار والاستشراق والصهيونية »

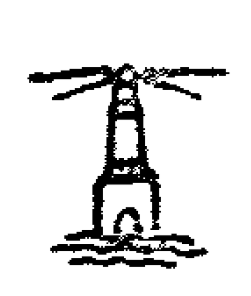
تأليف

الدكتور حلمى على مرزوق

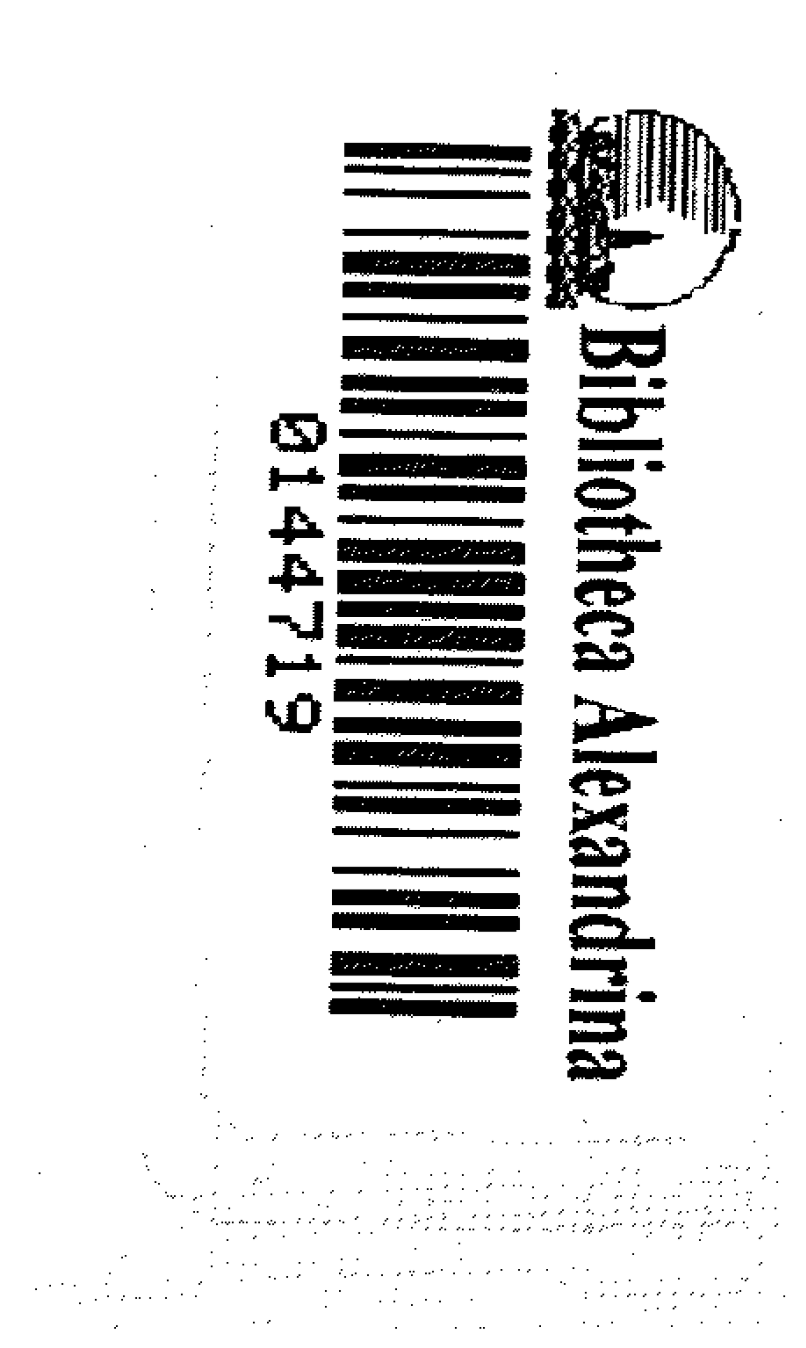
دكتوراه فى الآداب - ليسانسيه فى القانون

جامعة الاسكندرية

١٩٧١



دار المعارف بمصر





جوانب من

قضايا الأمة العربية

الجزء الأول

« فى الاستعمار والاستشراق والصهيونية »

تأليف

الدكتور حلمى على مرزوق

دكتوراه فى الآداب - ليسانسيه فى القانون

جامعة الاسكندرية

١٩٧١



دار المعارف بمصر

كلمة الأستاذ الدكتور محمد عبد المعز نصر

عميد كلية الآداب وأستاذ العلوم السياسية

يسرنى أن تتاح لى فرصة تقديم مؤلف الصديق الدكتور حلمى على مرزوق عن « الأمة العربية » . فالدكتور حلمى مرزوق فيما يقول ويكتب إنما يصدر دائما عن صدق وإيمان قائم على البحث والدراسة والتأمل العميق ، ويضفى على ما يعالج من موضوعات أضواء جديدة مستمدة من ثقافة متنوعة واسعة ، أدبية وقانونية وفكرية .

وهو بهذه الدراسة فى « الأمة العربية » إنما يفتح ميدانا يرحب المشتغلون بالدراسات السياسية والاجتماعية بإسهامه الخصب فيه ، وبما يضيفه إليه من غنى وجدة .

ويبدو أسلوب الدكتور حلمى مرزوق واضحا فى فصول هذا المؤلف الذى يحمل طابع الاطلاع المقارن بين الحضارة العربية والغربية فى مجال الحكم . كما يحمل أثر الدراسات المتنوعة من أدبية وسياسية واقتصادية وفهم مستنير للاتجاهات الفكرية فى التفسير للحركات التاريخية .

وإنى إذ أقدمه إلى القراء والباحثين أرجو أن يواصل الدكتور حلمى مرزوق هذا المنهج الدراسى فى ميدان العلوم السياسية والاجتماعية . فالأدب مدخل من مداخل علم السياسة إن لم يكن موضوعا من موضوعاتها بما تتناول من مسائل المجتمع ونظمه .

دكتور محمد عبد المعز نصر



الإهـــداء

إلى أساتذتى الأفاضل ، وزملائى الذين تفضلوا بالاستماع إلى فصول هـذا الـكتاب ، وكانت لآرائهم وتوجيهاتهم أثر كبير فى قيمته العلميـة ، وأصلحت كثيراً جداً من أسلوبه ومنطقه ، وعلى رأسهم : أستاذنا الدكتور سعد زغلول أستاذ الحضارة الإسلامية والدكتور حسن ظاظا أستاذ اللغـة العبرية وآدابهـا المساعد والأستاذ محمد عبد المتعال قدال أستاذ اللغة الإنجليزية وآدابها المساعد .

وأعتذر فى هذا المقام إلى هؤلاء الأفاضل عما قد يقعون عليه بعد الطبع فى هذا الكتاب من رأى أكون قد استمسكت به دونهم ، أو تعبير أبقيت عليه ، أو كلمة آثرتها على غيرها .

ولى الشرف ـ آخر الأمر ـ أن يتفضلوا علىّ بقبول هذا الإهداء .

التقديم

لقد تضافرت على الأمة العربية فى تاريخها الحديث قوى الاستعمار وأضاليلُ فريق من المستشرقين ، ذاك بقوته واستعلائه ، وهؤلاء بتفكيك أواصر الحضارة العربية ، والتشكيك فى جدوى التراث وعقلية الآباء والأجداد .

وهكذا وجدنا أنفسنا على أيديهم بين ماض زائف ، وواقع مُخْزٍ من القهر والاحتلال .

وتجيء الصهيونية بحقدها التاريخى ، فتمد هؤلاء وهؤلاء بما أوتيت من جهد فى الحط من ماضى الأمة العربية وجدواها فى الحضارة الإنسانية ، ومن واقعها الراهن فى شئون الحرب والسلام .

وهكذا اجتمع هذا الثالوث البشع على صعيد واحد من البغى ، وكلهم شاخص إلى الوحدة الجامعة لأطراف هذه الأمة يستهدفها بالتفكيك والانحلال .

ولا بأس من أمة يجتمع عليها الشكُ فى حاضرها المادى والمعنوى ، وفى ماضيها القريب والبعيد على السواء .

فقد تسقط الأمة فى موازين الواقع ، ولا تبلغ شأو غيرها فى مضمار القوة والجاه ، إلا أنها - بعدُ - فى منعة بما أسلفت من يد فى تاريخ البشرية ، وخطة الحضارة الإنسانية ، شأن أمم الشرق الأدنى والأقصى على وجه العموم .

وقد لا تكون الأمة على شىء من هذا التاريخ المجيد ، إلا أنها تستغنى عنه بمكانتها من كفة الحياة ، وبصوتها المسموع فى المحافل الدولية شأن أمريكا وغيرها من بلاد الأمس القريب .

قد يكون هذا وقد يكون ذاك ، أما أن يتضافر على الأمة مثلُ هـذا الثالوث فيريبها فى حاضرها . ويزيف لها ماضيها ، فذلك هو الضياع ، ولا ضياعَ أضيعُ من سقوط الأمة فى موازين الواقع ، ثم فى حساب الحضارة والتاريخ .

وذلك هو القصد الذى التقى عليه هذا الثالوثُ من أساطين الاستعمار ودعاة الصهيونية وغلاةِ التعصب من المستشرقين ، فالتقرير الذى رفعه ساسة العصر إلى السير كامل بنرمان (*Campbell-Bennerman*) رئيس الوزراء البريطانى فى مطلع هذا القرن يقضى بكون الخطر المرتقب على عامـة الاستعمار الأوروبى فى مواطن التقاء الشرق بالغرب ، حيث الجبهة العربية العريضة التى تلتقى شعوبها عند جامعـة اللغة والتاريخ والوجدان ، ولا سبيل إلى الإبقـاء على الإمبراطوريات الاستعمارية التى تمد عبر هذه المناطق ، إلا بتمزيق هذا المارد الجبار قبل أن يستتم خلقه وتستحصد قواه [1] .

ولم يشذّ عن هذا الرأى بلد واحد من بلاد الاستعمار ، سواء أكان فرنسا أم هولندا أم بلجيكا أم إيطاليا ، اللهم إلا ألمانيا لأسباب الخصومة والعداء لا الورعِ والتعفف الذى تحمد عليه .

ولا يختلف غلاة المستشرقين والمتعصبون من أساطين الاستعمار فى موقفهم من خطر هذه الأمة والسعى إلى تمزيقها ، يقول لورانس براون *Brown, L.* : « إذا اتحد المسلمون فى إمبراطورية عربية أصبحوا لعنة على العـالم وخطراً . . . أما إذا ظلوا متفرقين فإنهم يظلون حينئذ بلا قوة وبلا تأثير » .

ولا يتحرج لورانس ـ وهو رجل الدين ـ من الانتصار بالاستعمار فى سبيل هذه الغاية بما يستثيره فى نفوسهم من الخوف والضغينة ، فالخطر الحقيقى ـ عنده ـ

---

(١) كتاب الاستعمار للدكتور محمد عوض ، ص ١٨٨ وما بعدها واليهودية للدكتور للدكتور أحمد شلبى ، ص ٨٣ وما بعدها .

كامن فى نظام الإسلام ، فى قوته على التوسع والإخضاع ، وفى حيويته ، فهو الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى » (١) .

أما الصهيونية فهى أخطر شراً من هؤلاء وهؤلاء ، لأنها تدعى لنفسها حقا ثابتا من النيل إلى الفرات ، وتجادل دون هذا الحق ـ فى زعمها ـ بما أوتيت من حجج التاريخ ، وغيرها من نبوءات العهد القديم ، ومصالح الاستعمار والمستعمرين فهى تطل على جمهور الباحثين والعلماء بوجه السبق التاريخى أو الحضارى المزعوم ، وعلى المتحمسين من الأتباع والمهاجرين بوجه القداسة فى تأويل التوراة وشروح التلمود ، وتطل ـ آخر الأمر ـ على الاستعماريين والإمبرياليين بوجه المصلحة المادية والقواعد العسكرية فى بلاد التحرر وطلاّب الخلاص .

فدعواها كرأس بثلاثة وجوه ، لا يستطيع الإنسان مهما أوتى من العبقرية أن يرى منه إلا وجهـا واحداً فى آن واحد ، والصهاينة ـ بعدُ ـ أحرصُ على التمويه والتضليل ، وهنا أخطر ما فى الدعاية الصهيونية على الإطلاق .

إلا أنها كالاستشراق والتبشير لا تجـد سبيلا أخصر من الاستعمار تتملق بمطامعه وتنتصر بأسبابه ، جاء فى المذكرة التى رفعوها إلى فرنسا فى مطلع هـذا القرن : « إن البلاد التى نعتزم احتلالها ستضم مصر السفلى والأقسام الجنوبية من سوريا ولبنان ، وسيمكننا هذا الواقع من أن نصبح سادة التجارة مع الهند وشبه الجزيرة العربية وإفريقيا الشرقية والجنوبية ، ونحن نعتقد أن ليس فى وُسع فرنسا إلا أن ترغب فى رؤية الطريق إلى الهند والصين محتلا من شعب يسير وراءها إلى الموت ، وهل هناك من شعب يصلح لهذا الهدف أكثر من اليهود

---

(١) المبشرون والمستشرقون ، ص ٦ والتبشير والاستعمار ص ٣٢ .

الذين شاء القدر لهم منذ بداية عصور التاريخ أن يرتبطوا بمثل هـذا الهدف ، وليس من شك أن اليهود والفرنسيين قد خلقوا منذ الأزل ليعملوا معا » (١) .

تمزيق الأمة العربية ـ إذن هو مناطُ الاتفاق بين هذه القوى الثلاث ، وهو الوحدة الجامعة لمصالحهم المتشابكة ، وهم فيما وراء هذه الغاية المشتركة مختلفون فى النشأة ، ومختلفون فى الأهداف البعيدة والقريبة على السواء .

فالصهيونية حنين متصل إلى الأرض الموعودة أو « أرض الميعاد » منـذ التشتت أو « الدياسبورا » (*Diaspora*) ، أو بمعنى أدق منذ فارقوها فى مطلـع التاريخ الميلادى ، من جرّاء ما أفسدوا فى هذه البقعة المقدسة من إمبراطورية الرومان ، ثم ها هم هؤلاء بعد هذا التاريخ الطويل يتباكون عليها اليوم بدعوى « الحق التاريخى » ، وفى هذا الحق ما فيه من الاستهزاء بسنة التـاريخ فى هجرة الشعوب وتوطن الأجناس ، فضلا عن الاستهزاء بعقول البـاحثين والمتبصرين المنصفين .

لأن الصهاينة لا يقفون بدعواهم عند هذا القصد القريب ، وإنما فلسطين هى الركيزة فى زعمهم إلى العالم كله وامتلاك ناصية الجويم (*Gentiles*) . لايفرقون فى هذا الزعم بين العرب وغير العرب ، ولا المسلم أو المسيحى ولا غير ذلك من الأجناس والأديان ، فكلهم « خدم » لشعب الله المختار ، وشعوبهم راضخة ـ لا محالة ـ لما سوف يتصل على أيديهم من ملك داود وسليمان ، نبوءة مقدسة ، وحكم نافذ ـ فى زعمهم ـ وإن طـال به الزمان ، تشهد عليه نصوص التلمود فى القديم ، وما اتصل منها على أيديهم فى « بروتوكولات حكماء صهيون » فى هذا العصر الحديث

---

(١) قضية فلسطين ص ٢٨ وكتاب الاستعمار لمحمد عوض محمد ص ١٤٤ ، ١٨٩ .

فلقد انفضت جلساتهم فى « بال » عام ١٩٠٥ بالبروتوكول الرابع والعشرين وفيه مادة التآمر على شعوب هذا العالم والسيطرة عليه الجوييم » باسم ملك داود المزعوم وحكومته الإلهية العالمية ، فلقد جاء فى ديباجته « والآن ، سنعالج الأسلوب الذى نقوى به دولة الملك داود حتى تستمر إلى يوم القيامة » .

أما الاستشراق والتبشير فصنوان فى الأغلب الأعم ، لأن التبشير يتقاضى العلم بلغات العرب وأديان الشرق ، ومن أخص عدته التعمق فى آداب الناس وفقه عاداتهم وتقاليدهم ، وكل أولئك من عمل الاستشراق وجهد المستشرقين ، وأنت تقرأ فى حياة هؤلاء وهؤلاء فترى كثيراً من أساطينهم جمع بين التبشير والاستشراق من أمثال جسب (*Jessup*) وماسينيون (*Massignon*) وزويمر (*Zwemer*) والأب لامانس (*Lammens*) ومن اليهم عن أحصاهم نجيب العقيقى فى كتابه عنهم [١] .

ولا يعنى ذلك أننا نطعن فى جهد المبشرين أو المستشرقين أحدهما أو كليهما ، وإنما الطعن على الانحراف بهذه الجهود عن غاياتها الدينية والعلمية الخالصة إلى خدمة الاستعمار ، وإلى التعصب على غير ما جاء به الغـرب من المعتقدات والحضارات .

وكان حريًا بكليهما أن يلتزم جادة المنهج الذى هو عليه ، وأن يستلوا من أنفسهم العصبية العمياء للحضارة الهلينية والأوروبية ، وأن يكون شأنهم فى البحث النزيه شأن المنصفين من أمثال جوستاف لوبون (*Le Bon*) وكارلايل (*Carlyle*) والدكتورة سيجريد هونكه (*Hunke*) ومن اليهم من جمهور

---

(١) المستشرقون .

المحايدين إلى حد كبير .

ويجيء الاستعمار بما هُيء له من أسباب الغزو والقهر والسلطان ، فيفرض نظمه « البرجوازية » فى شئون السياسة والاقتصاد والاجتماع بدعوى التطوير والإصلاح ، وهى فى حقيقتها عُدته إلى السيطرة واستلاب الاموال ، ثم هى وسائله المشروعة فى نهب الشعوب ، وتلك هى قرصنة العصر الحديث ، لا تختلف عن قرصنة العصور الوسطى إلا فى العدة أو الاداة ، فالقراصنة عدتهم السيف ، والاستعمار أداته المبادئ والتنظيمات ، ورحم الله حافظاً عندما قال :

لقد كان فينا الظلم فوضى فهذبت ∴ حواشيه حتى عاد ظلماً منظما

وهذه اللصوصية المقنعة التى كشفت عنها بصيرة الشاعر ، كشف عنهـا نابليون ـ وقد تهيأ لغزو مصر ـ حين قال : « إن الناس يريدون أن يعرفوا إلى أين نحن مسوقون ، إننا عازمون على القضاء على البقية الباقية من أوروبا ، وعلى أن ننقض كاللصوص على لصوص أقلّ منا جرأة لنصبح المسيطرين على طريق الهند » (١) .

ولعل الذى سوغ لنابليون هذه الجرأة فى الحكم ، أنها أفضح الأمة البريطانية وأزرى بها بين العالم ، وهذا ما دفع المؤرخ البريطانى هربرت فشر (*Fisher*) أن ينتقم منه لدولته وأن ينتقم لتاريخها فيصفه على عهد الغزو وآمال التوسع بالقرصان « الذى امتلأ رأسه حماسـة وطربا ... عندما ظهر له باب السطو والنهب » (٢) ، وإذا اختلف اللصان ظهر المسروق كما يقولون .

---

(١) نابليون للمؤرخ فشر ص ٢٢ .

(٢) المرجع السابق .

وهذه المقاصد الخفية تتضارب ـ ولاشك ـ مع بعضها البعض ، وهنا يقع الخلافُ الكبير بين أطراف هذا الثالوث ، فالصهيونية بما تضمره من شر للعالم لا يخفى أمرها على المستعمرين ولا على عامة الاوروبيين ، فشأنها وضيع حتى بين اليهود فى ربوع أوروبا وأمريكا ، وحسبك ما تسمعه من الخلاف بين الصهاينة وغير الصهاينة من عامة اليهود ورجال الدين ، ولا أدل على العداء المستحكم بين الرجل الاوروبى وأحلام الصهاينة من تلك النزعة المناهضة للسامية (*Anti-semitism*) التى رأيناها فى أبشع صورها على يد هتلر .

ومهما قيل فى هذا الصدد فإن الهتاريين محمولون على الوجدان الاوروبى ، وفعلهم محمول على هذه الحضارة ولا شك كما يقول أرنولد توينبى [١] .

ولا أظن هذا العداء الخفى بين الصهيونية والاستعمار أقلّ مما هو بينها وبين التبشير بحال من الأحوال .

فالمسيحيون داخلون فى زمرة « الجويم » ، بل هم المستهدفون بكل صنوف الحقد والاضّغان ، يقول جون كريج سكوت : « وليس هناك إلا مخرج مظلم من هذا التناحر ، الحار أو البارد ، الظاهر أو الخفى ، بين الصهيونية والمسيحية.. وهذا المخرج سوف يتقرر فى ليل طويل مظلم ملىء باليأس والقنوط » [٢] .

كما لا أظن المسيحية لها صوت مسموع فى أوضاع الحضارة الاوروبية وما تتبناه من النزعات الليبرالية أو دعاوَى التحرر والخلاص ، فلقد جاءت هـــذه

---

(1) *Toynbee, A. : A Study of History vol. 8 p. 273.*

(٢) الحكومة العربية في بريطانيا ص ١٠٢ .

الدعوات «الإنسانية» تَجب ما عداها من الأفكار والمعتقدات، وتدين النظم السياسية والاقتصادية والدينية جميعاً.

وهذه هى الخاصية الثالثة فى خصائص العصر الحديث كما يقول تمبرلى (*Temperley*)، «ففكر ذلك العصر كان ينظر بعين النقد والعداء لدعاوَى الكنائس والديانات القائمة» (١).

والحق أن أزمة المسيحية قد استحكمت على أيدى الغلاة من أصحاب المذاهب والنظريات، والداروينيين بالتطور (*Eaoluticn*) ومذهبهم فى نشأة الكون والإنسان، والفرويديين بتعقيل (*Rationalization*) الدوافع النفسية والسلوك الإنسانى، ثم العقائديين بأيديولوجيتهم (*Ideology*) فى تفسير التطور أو السلوك الاجتماعى(٢)، يقول ناثان ميكلم (*Micklem*) عضو كلية مانسفيلد فى أكسفورد: «إن المسيحيين قد يكونون أفلاطونيين أو توميسيين أو كانيين، ولكنهم لن يكونوا أبدا ماديين أو أتباع أوجست كومت» (٣).

وأبلغ من ذلك كله فى الدلالة على هذا العداء المستحكم ما أثر عن الثورة الفرنسية، فاتحة العصر الحديث، من مبادىء وشعارات كان أبشعها ولا شك «أن اشنقوا آخر ملك بأمعاء آخر قسيس» (٤).

---

(١) أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ص ٥٢.

(٢) *Baillie: Invitation to pilgrimage, ff. 17*

والفكر الاوروبى فى القرن الثامن عشر لبول آزار، ترجمة الدكتور غلاب.

(٣) *Micklem, N. National Socialism the Roman Catholic Chuck, p. 7*

(٤) أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ص

وأما الاستشراق فهو أشدها جميعا فى حدة الخلاف متى اختلفت الأهواء بين الباحثين الأوروبيين والصهاينة ، فى أمر كان يجرى بينها على سُنة الوفاق فى أصول التاريخ والعقائد ، أو سبق الشرائع وأصول الحضارات ، لأنهم يعلمون جميعاً ما لجدوى السبق والأصالة من آثار بعيدة فى استلاب الحقوق أو تثبيت الادعاءات .

إلا أن هـــذا التناقض أو الصراع الخفى بين الاستعمار والصهيونية والاستشراق ، تختفى حدّته على مائدة التآمر بالشرق والأمة العربية .

وهذا هو مكمن الضعف فى هـذا الثالوث البشع ، لا يجتمعون على حق واحد أو مبدأ جامع ، وإنما هى المصلحة الحالّة ونومُ أصحابها عنها ، وهم فيما عدا ذلك من المجابهة ، وطبيعة الموقف ، يختلفون أشد الخلاف « بأسهم بينهم شديد ، تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى » صدق الله العظيم .

الفصل الأول
فى
الاستعمار

نعود إذن إلى تفصيل القول فى القرصنة أو اللصوصية التى تواردعليها «نابليون» رائد الاستعمار الغربى مع شاعر الشرق المغلوب على أمر أمته ، لأنها سر الصراع بين الشرق والغرب ، أو هى لب «المسألة الشرقية» كما يسميها المؤرخون .

ومن بداائه هذا العصر أن الدوافع إلى كل استعمار هى دوافع الاقتصاد والاستغلال ، وأن إدعاء الحضارة وتمدين الشعوب ، مثله كمثل ادعاء الغيرة على كرامة العمل ، كلاهما باطل ، وتبرير سخيف ، اعتاد المستعمر أن يقدمه بين يدى استعماره ليخدع به الرأى العام ، ويخدع به نفسه ، ثم الشعوبَ المغلوبة على أمرها .

وخديعة الشعوب المغلوبة على أمرها هين ميسور ، لأنها مغلوبة ، وليس وراء الهزيمة حجة تبرر الممالأة واصطناع الرضى والاقتناع .

أما الرأى الحر العالمى فأمره صعب عسير ، لأنه تشرب مبادئ الحرية وقدم شهداءه مزهوًا على مذبح الإخاء والمساواة ، وحسبنا مدام رولان (*Mme Rolana*) على رأس الشهداء الذين كانوا يهتفون للحرية وهم يساقون إلى الموت على خشبة المقصلة .

فمن خطل الرأى - إذن - أن يتحدى الساسةُ والزعماء هذه المشاعرَ القوية ، وألا يكترثوا لهذه المبادئ التحررية ، وفيهم أمثال برناردشو (*Shaw*) من الأدباء ، وبلنت (*Blunt*) من الساسة والأحرار .

فلقد ثار برناردشو باللورد كرومر (*Cromer*) وبحكومته الاستعمارية من جراء مذبحة دنشواى ، أما (بلنت) فقد خاب ظنـه هو وزوجته حفيدة اللورد بايرون (*Byron*) فى «شرف الإمبراطورية البريطانية ، من كثرة ماخان ساستها العهود ، وأخلوا بالمبادئ الإنسانية والالتزامات الدولية فى مصر وفى غيرها من المستعمرات ، يقول فى مذكراته عن مصر : «وكنت وقتئـذ ممن يؤمنون بالعقيدة الشائعة وهى أن لإنجلترا فى الشرق مهمة سماوية ، وأن حروبنا هناك لم تكن إلا من أجل أغراض نزيهة صالحة ، ولم يكن شىء أبعـد عن ظنى من ان نكون نحن ـ معاشر الإنجليز ـ مجرمين بانتهاك حرمة العدالة بالسلاح لمجرد أهوائنا ومصالحنا » (١) .

وعلى هذا الأساس كان على الساسة والزعماء أن يتذرعوا بالحجج القوية فى الدعوة إلى الاستعمار أو الاحتلال ، حتى لا يجلبوا عليهم غضب أمثال هؤلاء الأحرار من الفلاسفة والأدباء ، فاصطنعوا حجج التحضير والتمدين ، يبررون بها ما وراءها من الغزو والسيطرة والاستثمار ، حتى لقد سمى الملك « ليوبولد » (*Leopold*) نفسه الهيئة التي استعمر بها الكونغو « الاتحاد الدولى للاستكشاف ونشر الحضارة فى الكونغو » .

(Alliance Inteanationale pour l'exploration et la civilization du Congo.) 2

وتلك هى الخديعة الكبرى التى جازت على عامة الرأى الأوروبى بعد نجاح الثورة الفرنسية ، فلقد استهوتهم المبادئ وشعارات التحرر استهواءً قويا جرهم

---

(١) التاريخ السرى لاحتلال انجلترا لمصر ـ ١ ص ٢١ .

(٢) الاستعمار والمذاهب الاستعمارية للدكتور محمد عوض ، ص ٥٢ .

إلى التصديق بكل ما لابس هذه المبادئ من الحجج والتسليم الأعمى لما انبنى عليها من الخطط والمشروعات ، يقول كرستوفر هيرولد (*Herolb, J. Ch.*) « وفى الخطابات التى كتبها ضباط جيش نابليون وجنوده من مصر شواهدُ على أن كثيراً منهم كانوا يتقبلون ـ فى سذاجة ـ شعارات العهد الوطنية ، فقد ترك أغلبهم أسرهم وبيوتهم منذ سنوات ، وانخرطوا فى الجيش متطوعين للدفاع عن الجمهورية من الطغاة ، وكان بعض الشبان الذين جُندوا فى حركة التجنيد العامة يؤمنون أنهم حائزون المجد أيا كانت وجهتهم لأنهم سيبسطون ظلال الحرية على بلاد أخرى » (١) .

ولا يختلف القادة والزعماء عن عامة شعوبهم فى قبول هذه الحجج الاستعمارية والتبجح بها فى المحافل الدولية ، فهم خادعون ومخدوعون ، لأنهم أحوج من شعوبهم إلى مثل هذه الحجج يكبتون بها ضمائر التحرر كلما تلاقوا فى المؤتمرات ، أو تقابلوا على موائد الصلح والتفاوض ، يتقاسمون النفوذ ، ويتوارثون الأمم والشعوب .

ومن هنا سمعنا عن فلسفة «الانتداب» وأشكاله المعروفة فى قاموس السياسة الدولية بعد الحرب الاولى ، كما سمعنا عن «الوصاية» وفلسفتها بعد الحرب الثانية (٢) ، وكلها ظاهرها الرحمة والإنسانية ، وباطنها الاستغلال والسيطرة والاستعمار ، جاء فى المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم ، أن

---

(١) بونابرت فى مصر ص ١١ .

(٢) لدراسة الفوارق بين الانتداب والوصاية وأنواعهما ، راجع كتاب القانون الدولى للدكتور أبو هيف ، على سبيل المثال .

الانتداب نظام يقضى فى المستعمرات والأقطار التى زالت عنها سيادة الدول المهزومة ـ أن يطبق عليها المبدأ الذى ينص على « رفاهية هؤلاء السكان وتقدمهم أمانة مقدسة فى أعناق الدول المتمدنة » ، وذلك هو نص المادة الثالثة والسبعين من ميثاق الأمم المتحدة فى شأن الوصاية على الأمم والشعوب .

وحسبنا فلسطين شاهداً يسخر بكل ما تنطوى عليه هـذه البنود أو المواد والتعريفات ، فلقد انتهى بها الانتداب الانجليزى إلى اليهود ، وخرج بأهلها على هذا النحو الغادر الذى لا يزال يندَى له جبين الإنسانية عنـد المؤرخ الكبير أرنولد توينبى (*Toynbee*) ، «فاللاجئون ـ عنده ـ هم الضحايا البرآء لاصطدام الغرب باليهود ، أو هم ضحايا الخطايا البشرية ، وما ارتبطت به من الظروف الاجتماعية فى هذا العصر الحديث » (١) .

وتفسير هذه النزعات الاستعمارية يكمن فى صلب الحضارة الأوربيـة أو حضارة العصر الحديث ، فهى حضارة رأسمالية لا يملك ساستها شيئا من أمر الحرب أو السلام ، وإنما هم محكومون برغبات العصر أو هوى المال ورجال الاعمال ، وكلها شاخص إلى الحرب والمغامرة فى سبيل الربح والاستغلال ، فهذا نابليون الثالث ، كان يعتقد أن الامبراطورية هى «التجارة» ، ولم يكن يختلف عنه فى هذه العقيدة تشامبرلين زعيم المحافظين فى انجلترا ولا غـيره من الساسة والحـكام (٢) .

ولقد نظروا إلى الشرق بكل هذا الجشع الطاغى ، فتأوّبوا إليه تجـاراً فى ثياب الفاتحين والغزاة ،وأنت تقرأ تفاصيل الحملة الفرنسية ،منذ دوافعها والتفكير فيها ، فلا تعدم فى كل خطوة إصبعا من أصابع التجارة والتجار .

---

(١) *Toynbee, A. : A Study of History, Vol. 8 p. 273.*

(٢) النظم السياسية الحديثة للدكتور سويلم العمرى ص ١٣٩ .

فشارل ماجالون وهو أهم الذين طالبوا حكومة الإدارة (*Directoire*) بالحملة على مصر ، كان تاجراً بل شيخ التجار فى مصر ، فقد كان يومها قنصل فرنسا ، وكان يتكلم بلسان العشرات من التجار الفرنسيين .

ولقد صادف ذلك هوى فى نفس تاليران (*Talleyrand*) ونابليون ، فدافع كلاهما عن المشروع بمصطلحات التجارة ومطالب الاقتصاد ، يقول تاليران فى خطاب سرى لواحد من أصدقائه : « إن جميع تجارة البحر المتوسط يجب أن تنتقل إلى أيدى الفرنسيين . تلك هى الرغبة الخفية لحكومة الإدارة » (١) .

أما نابليون فقد خطب فى جنوده وهم على حافة مصر « إنكم موشكون على فتح له آثار بعيدة المدى فى حضارة العالم وتجارته.. ولن تنقضى أيام على نزولنا البر حتى نقضى على بكوات المماليك الذين لا يرعون غير التجارة الإنجليزية والذين يظلمون تجارنا بمعاكساتهم » (٢) .

ولقد رافق الحملة تجار من كل جنس . ركبوا مع نابليون من حيث يدرى ولا يدرى . وكلهم طامع فى المال . مغامر من أجل الكسب . ولقد ضاق بهم « كليبر *Kleber* » رجل الصرامة والعسكرية الحق . فوصفهم « بالدود الذى يتبع الجيوش كما يتبع المركب سمك القرش » (٣) .

---

١ ـ بونابرت فى مصر ص ١٨٣ .

٢ ـ المرجع السابق ص ٨٠ .

٣ ـ المرجع السابق ص ٢١٦ .

أما الجبرتى فقد أشار إليهم باسم « الإفرنج البلديين » تحقيراً لشأنهم بالقياس إلى الضباط والمحاربين ، وما كان يدرى يومئذ أنهم جميعا من هذا الصنف لولا غرور الرتب والمراكز والنياشين (١) .

وبجمل القول ، أنك لاتستطيع أن تفهمَ الاستعمار وقضايا الشعوب المغلوبة على أمرها إلا بمصطلحات المنفعة والاستغلال ، أما ما يقدمونه بين أيديهم من مصطلحات الحضارة والمبادىء الإنسانية فما هى إلا ما قدمنا من نفاق الضمائر وخديعة الشعوب .

كتب نابليون رائد الحرية والإخاء والمساواة فى الشرق إلى حكومة الإدارة يقول : « إن جزائر كورفو وزنطة وكفالونا العثمانية أنفع لنا من إيطاليا كلها ، وأعتقد أننا لو خيرنا لكان خيراً لنا أن نملك هذه الجزائر التى هى مصدر ثروة لنا ورواج لتجارتنا ، إن الدولة العثمانية تتصدع ، وامتلاك هـــذه الجزائر سيمكننا من مساندة الدولة العثمانية إلى الحـــد الممكن ، فإن لم نستطع ظفرنا بنصيبنا منها » .

يقول كريستوفر هيرولد « والسخرية المستترة وراء هذه السطور جديرة بالإعجاب ، لأن الجيش الفرنسى باسم الحرية والعدالة ، وبتضحيـــات من الجهود والدماء لا تكاد تصدق ، كان قد فرغ لتوه من تحرير شطر كبـير فى ايطاليا ممن وسمهم واضعو هذه الشعارات فى باريس باسم الحكام الطغـاة ، وهذه الأراضى هى نفسها التى يريد محررها أن يردها لحكامها الطغاة السابقين نظير عدد قليل من الجزر الصغيرة التى ينفع امتلاكها حفنة من التجار » (٢).

---

(١) الجبرتى ج ٣ ص ١٢ .

(١) بونابرت فى مصر ص ١٣ ــ ٢٤ .

وإنا لا ندرى مع (هيرولد) ما ذا كان يحكم به هؤلاء الجنود على بطلهم لو قد أتيح لهم أن يعلموا ما كان يجرى فى خاطره من هذه الآراء وهو يجرهم إلى جبال إيطاليا وسهولها باسم مبادئ العدل وتحرير الشعوب [١] .

ولا يقال إن ذلك طبيعة فى النفوس ، فالناس يسعون دائما إلى الكسب واستغلال المغلوب .

لا يقال ذلك ، لأننا لا نؤرخ لآحاد الناس وإنما نؤرخ لمُثل العصر ونحاكم أوضاع الحضارة ، وتاريخنا العربى من أحفل التواريخ بمبادئ العدل والإنصاف وحسبنا أن نسمع ونحن فى ذروة السلطان وأوج الغلبة والفتوح ، حكاما وخلفاء يأبَون الظلم ، ولا يرضَون مثل هذا الاستغلال .

جاء فى الأخبار أن عمر بن عبد العزيز لم يتأول نوعا من الجباية كان الولاة يرون بيت المال أحق بها ، وكانت حجته القاطعة أن الرسول « بُعث هادياً ولم يبعث جابياً » فردوا ما أخذوه على الناس فى أقطارهم وبلادهم .

فالسلطان — عنده — سلطان المبادئ ، وسلطان الحرية الإنسانية ، لا سلطان الجباية والاستغلال ، وهذا الدستور ليس عمرُ فيه بأول ، وإنما هو تابع يسير فى هدى السلف وعلى سُنة الحضارة فى المبادئ وحقوق الشعوب ، جاء عن عمرَ ابن الخطاب أن عمرَ وبنَ العاص بعث إليه بمال كثير وكتب يقول : « إن مصر بقرة حلوب » . فرد إليه عمر الزيادة وقال : « حتى لا يهلك وليدها » .

تلك هى سياسة المبادئ واحترام الشعوب المغلوبة أو حقوقها المشروعة مهما كانت الظروف والأحوال ، ورحم الله عمر عندما قال . « لو أن بغلة عثرت

---

(١) المرجع السابق ص ٢٣ — ٢٤ .

فى العراق لوجدتُنى مسئولا أمام الله لِمَ لمْ أسوِّ لها الطريق » .

والعراق غير المدينة كما هو معروف ، كما كانت روما غـــير قرطاجة فى القديم ، وباريس ولندن غـــير القاهرة ودمشق وبغداد فى الحديث ، ولـكن ما أبعد الفرق بين الحضارتين.

هذا شأن الإسلام مع الأمم المفتوحة ، وهذا حرصه على مصالحها ، لم يفرق بين البلد الغازى والمغزوّ ، فكلها سواء ، قد وقع على عاتقه ، ودخـــل فى حق الرعاية والإصلاح ، وتلك هى أمانة المسئولية التى تبلغ حد الإعجاز .

وكما لم يفرق عمر بين البلاد الفـاتحة والمفتوحة ، فإنه لم يفرق بين المسلمين وغير المسلمين من الذميّين والمعاهدين ، فكلهم رعايا الدولة الإسلامية « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، ذمة مخفورة وعهد نافذ .

ويؤثر عنه فى هذه الرعاية ومشاعر المساواة ، أنه مر بشيخ يهودى يسأل الناس ، فهاله الأمر ، وعلم أنهم لم يكتبوه فى سجل الرواتب والأرزاق ، فقال : « أكلنا شبيبته ونضيّع شيخوخته ، اكتبوا هذا وأمثاله فى بيت المال » .

ومهما قيل فى تقويم هذه الآثار، والنظر إلى غير عمرَ من عامة الحكام وضعاف الخلفاء ،فإن الأمر الذى لا يُمارى فيه باحث منصف أن جوهر الحضارة الإسلامية هو الذى حرم مشاعر السيطرة والاستغلال ، لأنه أبى أن تـكون السيادة لغـير مبادىء الحق والعدل فى السياسة وشئون الاقتصاد على السواء .

وقد يقال فى تبرير النزعات الاستعمارية الحديثة من جهة الاستغلال التجارى والاستثمار الصناعى ، إن الأمر أمرُ منافسة مشروعة ، فالباب مفتوح لمن أراد الدخول من تجار البلاد وأصحاب الصنعة فى سوق الربح أو الإنتـاج وتصريف

البضائع (*laissez-faira*) وقد يقال أن ليس وراء هذه المبادئ التحررية عدل ينشده دعاة التكافؤ والمساواة فى ميدان المال والأعمال ، فالفرصة متاحة لمن أرادها من أبناء الشعوب الغالبة والمغلوبة على السواء ، فكلهم حر مختار ، يصنع ما يشاء ويتجر فيما يشاء ، والدولة — بعدُ — ضامن لهؤلاء وهؤلاء على قدم الإنصاف والمساواة ، ولا لائمة بعد ذلك إلا على تخلّف هذه الشعوب ، وتقاعسهم عن المبادرة أو تكاسلهم عن العمل والنشاط .

وهذه هى الحجة المقبولة عند عامة الاوروبيين أو التى يريدون قبولها ، فيتغاضّون بذلك - قصداً أو على غير قصد - عن جوهر الاستغلال ، ويصرفون الناس عن لب القضية ، لأن الاستغلال ليس أمراً طارئاً على النظم الاستعمارية يستطيعون تجاوزه أو التعديل فيه ، وإنمــا هو خصيصة كامنة فى الأوضاع الرأسمالية التى يفرضونها على البلاد .

والداخل معهم فى هذه النظم من تجار البلاد وأعيانها ، داخل معهم - ولابد - فى بشاعة الاستغلال وهذا الاستئثار ، غاية الأمر أنهم يسمون الاشياء بغير أسمائها ، فالاستغلال - عندهم - ربح مشروع ، والسرقة المقنعة كسب مباح .

ولا شك عندنا أن هذه السرقة ستظل سرقة ، ولا ينبغى أن يفهمها الناس على غير هذا الوجه . فاللصوصية تنتهى إليها طبائع هـذه النظم البرجوازية التى فرضها الاستعمار على الشرق أو غــير الشرق بقوة السلطان أو التمويه وخداع الافكار .

فهذه النظم بما شرعته من مبادئ التحرر والتكافؤ ، قد أخلت ما بين الذئب والحمل كما يقولون ، لانها أطلقت رؤوس الاموال فى ميدان العمل والعمال تحتكر

قواهم وتبخسهم أجورهم ، وهم أضعف من أن يقاوموا هذه القدرة الاحتكارية العاتية ، فانتهت جدوى مبادئ الحرية أو التحرر فى ـ واقع الأمر ـ إلى أرباب العمل ورؤوس الأموال ، أما العمال وأرباب الأجور فحظهم منها قبض الريح ، وذلك هو جوهر « الحرية الصورية » التى تخفى وراءها كل ضروب الإذعان ونماذج الاحتكار .

وهذا هو مأخذ المآخذ ، لأنه يرتد إلى الخلل الكامن فى طبيعة هذه النظم الليبرالية أو المبادئ التحررية ، فالعامل لا يستطيع أن يقف موقف الندّ من رأس المال فى المساومة على الأجر وزيادته ، لأنه لا يستطيع أن يحبس جهد يومه إلى الغد ، ثم جهد الغد إلى ما بعد الغد ، ثم يبيع كل ذلك أضعافا مضاعفة إذا شاء أو متى شاء .

لا يستطيع ذلك ، لأن العمل أو الجهد نشاط مصروف ليومه وساعته ، ولا صبر لصاحبه على المساومة أو المناورة أو الجدال ، لأنه سلعة ثلجية تتأبى على التخزين والادخار .

وهذه الخصيصة هى أم البلاء ، لأنها مكمن الضعف الذى ينتهى بالعمال أو البروليتاريا (*Psolet asiat*) والاجراء إلى الإذعان لرأس المال فى كل مساومة، وقبول البخس من الأجور عند كل اتفاق .

والإذعان (*adkeoin*) عند الفقهاء وفى عرف رجال القانون عيب من عيوب الرضى ، تنتفى معه حرية التصرف أو سلطان الإرادة كما يقولون (*Antonomie de volonté*)

وفى انتفاء الارادة نفى لكل معنى من معانى التعاقد الحر ، أو المساومة الشريفة ، ورجع إلى عهود السخرة والإقطاع ، أو عهود « الواجب الإلهى » بلغة المستهزئين من الكتاب ، وفى ذلك دحض لما زعموه فى قانون العرض والطلب من القدرة على رد الأمور إلى نصابها ، أو ضبط الأجور ، والعدالة فى الأثمان.

وهذه الخصيصة الموهنة فى طبيعة العمل ، والمجحفة بموقف العمال ، تقابلها خصائص أعتى وأمر فى رؤوس الأموال ، أولها ذلك الميل الطبيعى إلى التكتل والتركيز والاتفاق ، وقد أفضى هذا الميل إلى ظهور السنديكات (*Syndicates*) والكارتلات (*Cartelo*) والترستات (*trults*) وغيرها من صور الاحتكار وصنوف التحكم فى الإنتاج والتوزيع أو الأجور والأثمان ، فأحيط بالعمال من كل جانب لأنهم هم المنتج والمستهلك ، فهم أصحاب الأجور المبخوسة ودافعو الأثمان الباهظة .

أما أرباب العمل ورؤوس الأموال فهم « الوسط الجامع » لطرفى الإنتاج والاستهلاك ، فما دفعوه من أجر بخس أو غير بخس يستردونه فى سوق الأثمان، يقول لينين « عندما كتب ماركس كتابه « رأس المال » كانت المنافسة الحرة تبدو قانونا طبيعيا فى نظر الأكثرية الكبرى من الاقتصاديين ، وقدحاول العلم الرسمى أن يقتل عن طريق مؤامرة الصمت مؤلف ماركس الذى برهن بتحليله النظرى والتاريخى للرأسمالية ، على أن المنافسة الحرة تولد تركز الإنتاج ، وعلى أن هذا التركيز يفضى عند درجة معينة من تطوره إلى الاحتكار ، وقد غدا الاحتكار الآن أمراً واقعا .

إن نشوء الاحتكارات عن تركز الإنتاج هو — إطلاقا — القانون العام

والأساسى فى المرحلة الحديثة من تطور الرأسمالية » (١) .

تلك هى خصائص القوة فى أرباب العمل ورؤوس الأموال ، كان من جراء التقائها مع خصائص الضعف فى موقف العمل والعمال أن قضت على كل أمل فى دفع الظلم وتعديل الأجور .

وجاء أئمة الاقتصاد الليبراليون الكلاسيكيون ، دعاةُ المنافسة الحرة وقوانين العرض والطلب ، فأفتَوا فى معدّل الأجور بفتوى قضَوا فيها على الأجر بالهبوط — ولابدّ — عند كل زيادة طارئة ، نزولا على قانون الأجر الحديدى (*Iron law of wages*) الذى قال به دافيد ريكاردو (*Ricardo*) ، فلا حيلة عنده للعمال ولا لأرباب العمل فى هذا الهبوط لأنه « قانون طبيعى » قضت به سُنّة الكون فى حركة الأجور ومعدلاتها .

وهذه الفِرْية الكبرى صرفت الناس عن الأمل فى الإصلاح ، واستولى عليهم اليأس ، وراحوا يلتمسون الخلاص فى الكوارث والنكبات صنيع مالتس (*Malthus*) . فى نظريته المعروفة عن السكان .

وجاء الفكر الاشتراكىّ بثاقب تحليله ليدل الناس على الخلل فى هذه المبادئ التحررية ، ويضع أصابعهم على مكمن الظلم فى النظام الرأسمالى كله ، بما كشفه من « فائض القيمة » (*Surplus-valne*) الذى ينزل عنه العامل لرب العمل إزاء ما قدمنا من خصائص الضعف أو ظروف الإذعان ومبادئ الاحتكار ، وهذه

---

(١) مختارات لينين ح ١ م ٢ ص ٣٢٠ — ٣٢١ .

القيمة الفائضة هى قيمة الجانب الذى لم يؤجر عليه العامل من جهده المبذول ، وذلك هو النهب الخفى أو السرقة المقنّعة فربّ العمل يحتجن لنفسه ، بغير الحق ، ساعة أو ساعتين أو أكثر أو أقل من جهد العامل فى يومه المأجور ، والعامل بمكانه الضعيف فى المساومة يتقبل هذا الأجر المنقوص .

وهذه الساعة أو هاتان الساعتان هما الجهد الزائد الذى ينزل عنه صاغراً لرأس المال ، أو هما الفائض عن الأجر المعطى أو الفائض عن القيمة المعطاة ، يقول ماركس : « فإذا تجاوزت عملية خلق القيمة حداً معينا صار الناتج فائضا عن القيمة » (١) .

وهذا الفائض المسروق هو الخلية الأولى فى صرح الرأسمالية ، والاستعمار أعلى مراحلها كما يقول « لينين » بحق .

على أن اللصوصية الاستعمارية ليست جميعا على هذا النحو من الخفاء والغموض لأنها لا تتلبّس كلها بمثل هذه النظم وما يغشّيها من فلسفات تحجب عن الناس مقطع الحق واليقين ، ولعل النظام المصرفى على النحو الذى جاء به الاستعمار إلى الشرق ، كان أفصح الوسائل وأدلها على خلة النهب وداء الاستغلال ، فلقد امتلأت الأمة العربية بالأفاقين من رجال المال والاقتصاد ، وغير المال والاقتصاد ، منذ أن وهنت الامبراطورية العثمانية ، وهانت دولها على الأوروبيين ، فكانوا من جملة السوس الذى ينخر فى البقية الباقية من عظامها فى مطلع العصر الحديث « فبدخول محاسن التمدن الغربى ومساوئه فى مصر ، دخلت أفضل عناصر أوروبا

---

(1) *Capital*, p. 94.

وأسوؤها من أصحاب البنوك والمرابين والتجار واللصوص ، والسماسرة الانجليز الهادئين ، وتجار الشرق الأدنى الزئبقيين (١) .

وقس على هؤلاء غيرهم من حثالة البحر الأبيض الذين « لا خلاق لهم » على حد تعبير لاندز ، فكلهم قد جرهم الجشع من جرّاء ما سمعوا فى بلادهم عن الشرق وخيرات الشرق ، فامتهنوا أحط المهن ، لايعفّون عن أحطها وأخزاها ما دام فيها الربح والكسب والمال .

ولا يقال ما شأن الاستعمار وذاك، لأن هذا العجّاج إنما عاش فى الشرق مطمئنا إلى سطوة الغرب ورهبته ، «فقد كانت مصر فى القرن التاسع عشر فى الحقيقة — كما يقول لاندز — أرضا مستعمرة عند رعايا الدول الكبرى حتى وإن كانت مستقلة اسميا ، وكان الرجل الانجليزى أو الفرنسى أو البروسى أو النمساوى يخطو على هذا الشبح البائس للأمـــة المصرية مزهوا مطمئنا إلى أن كل ما يصنعه ستحميه القوة » (٢) .

وقس على مصر غيرها من دول الأمة العربية ، فالبلاء فيها مشترك منذ ضعف الخلافة العثمانية وما استتبعه من اختلال الموازين ، فالامتيازات التى منحتها الدولة العثمانية فى القرن السادس عشر (١٥٣٥ م) ، عطفا على الأوروبيين وحماية لهم فى حجّهم لبيت المقدس ، وتجارتهم فى الشرق ، قد صارت وبالا عليها فى القرن التاسع عشر ، ووبالا على رعاياها من الأمة العربية بما أسىء استغلالها

(١) بنوك وباشوات ص ٨١ .

(٢) المرجع السابق ص ٩٢ .

على هذا النحو المزرى والمشين ، وهذا « شر من أحسنت إليه » .

وأسوأ ما فى هذا الاستغلال أن تُنتهك قيم العدالة الإنسانية ، ناهيك عن قيم الشرف والأخلاق التى تكثر المماراة فى الحساب عليها .

وأول هذه القيم المهدورة قيم العدالة الاقتصادية فى أعمال البنوك ، ومعدلات الفوائد والأرباح ، فأنت تنظر إلى مصر فى عهد إسماعيل فتراها مباءة لشركات الأموال والبنوك ، وكلها شاخص إلى النهب الذى أغمض عنه الأوربيون، دعاةُ الحضارة وحماة المبادىء ، فأبيح فى مصر من العمليات البنكية ما أجمعت البشرية على تحريمه فى مؤتمرات الاقتصاد بين وعلى موائد الإصلاح العالمى ، وكانت نهبا لصنوف المضاربات الصورية والمشاريع الوهمية وما شابه ذلك مما يخرج على وظائف البنوك وشركات الأموال ، يقول لاندز « أما النهب الحقيقى الكبير فقد تمثل فى العقود والامتيازات لبناء المرافق العامة ، وإنشاء الخدمات وشراء المؤن واستغلال المناجم ، وبعض هذه المشاريع كانت قانونية ... وبعضها لم يكن إلا غشا وخداعا ، ولكن جميعها كانت تستهدف أكبر استغلال لاحتياجات مصر... والحصول على أرباح استثنائية بل خيالية » (١) .

ونجاوز ما فى هذه الأعمال البنكية والتصرفات المالية من خلل مسكوت عنه ، لنصطدم بأبشع أنواع الربا الفاحش التى بلغت الثلث أو تزيد ، وما ديون إسماعيل وغير إسماعيل من عامة المصريين بخاف أمرها على آحاد الناس فضلا عن الباحثين والمؤرخين ، فقد كان الربا الفاحش — وحده تجارة رائجة يتضاعف فيها رأس المال كل ثلاث سنوات ، والتسليف كما هو معروف أقل العمليات المصرفية تفننا

---

(١) بنوك وباشوات ص ٨٧ .

وأهونها شأنا بلا شك . ولكن الحقيقة المؤلمة « أن كل من يوغل فى الشرق ، يعلم — كما يقول لوبون — أن أحقر الأوربيين يعتقد كل شيء مباحا فى الشرق ، وإذا لم يُستغل الشرقى رأسا كما يستغل فى الهند ... فإنه يستغل بالحيل التجارية التى تتم بوقاحة تدل على ضعف الطلاء لدى رجالنا المتمدنين » (١) .

ولا نريد أن نقف بعد هذا عند وقائع النهب الصريح الذى تجاوز الأموال إلى الحدود والجزر والبحار ، لأنها محسوبة عندهم فى الغنائم والتعويضات ، أو فى غير الغنائم والتعويضات مما تجود به قرائح المستعمرين فى معاهدات العلن واتفاقات السر والخفاء .

لا نريد الوقوف عند هذه الوقائع ، لأنها لا تتلبس بالاعتبارات السياسية والموازين الدولية والحجج التاريخية ، وكل ذلك ينأى بها عندهم عن الأحكام الخلقية ، والمعايير المثالية التى ثار بها مكيافيللى (*Machiavelli*) من الناحية النظرية فى القرن السابع عشر ، وثار بها الرئيس كليمنصو (*Clamenceau*) من جهة التطبيق فى مؤتمر « فرساى » فى مطلع هذا القرن العشرين (٢) ، وهكذا يفضى أول الأمر إلى آخره ، « ولا تلد الحية إلا الحية » كما يقولون .

إلا أن البحث الذى لا مفر منه ولا اعتراض عليه ، إنما يكون فى الأسباب التى أباحت فى نفوس الأوروبيين والمستعمرين منهم على وجه الخصوص كل هذا النهب والاستغلال ، على حساب المبادئ الاقتصادية والقيم الإنسانية التى زعموا أنفسهم يضطلعون بحمايتها فى هذا العصر الحديث .

---

(١) حضارة العرب ص ٥٩٧ .

(٢) تاريخ أوروبا فى العصر الحديث لفشر ص ٥٥٣ و ص ٥٦٧ وما بينهما .

وأنت إذا فتشت الأمر ، وجدت الجواب فى الاستهتار الذى انطوت عليه نفوسهم إزاء الشرق وغير الشرق من الشعوب التى لا تمت إلى الحضارة الآرية بسبب بعيد أو قريب ، وهذا الاستعلاء الحضارى المزعوم أو الامتياز العنصرى (*Racial SupremIcy*) قد نزل بالعرب منهم منزلة الجويم (*Gentiles*) من اليهود ، فهم فى حل من اللوم والتثريب على كل ما يأتونه فى هذه الأمم والشعوب لأنها شعوب الجمود والتخلف والانحطاط ، فلا كرامة لنظمها ولا كرامة لناسها بل لا كرامة لمعتقداتها ومقدساتها .

فالعالم عندهم عالمان ، والبشر بشران ، هم أول وغيرهم فى المرتبة الدنيا أو المحل الثانى ، ولقد بحث « لاندز » هذا العبث والاستخفاف والاستغلال فى مصر حتى قبل أن تدخل فى حيز الاحتلال والاستعمار ، فلم يجد مبرراً لكل هذا الجشع والظلم والنهب إلا ذلك الاستعلاء النفسى الذى يطغى على الأوروبى إزاء ما وراء البحار من الأمم والشعوب ، يقول « وتفسير ذلك يكمن فى .... أن هناك فى الحقيقة نوعين من المبادئ مبادئ للتعامل فى داخل مجموعة الغربيين ، ومبادئ للتعامل مع السكان المحليين .

فقد كان هناك من يعتقد أن العدل الإسلامى فاسد ، وأن المواطن المحلى خسيس وجدير بالاحتقار ... ، وثَمة أناس كثيرون يَرون فى كل مصرى عدواً كامنا ، تحتاج نواياه السيئة إلى اليقظة والإجراءات العنيفة ، وآخرون ينظرون إلى المواطنين المحليين كأطفال ، يحتاج سوء تصرفهم وعبثهم إلى الرعاية الأبوية من جانب أصدقائهم وحماتهم الأوروبيين .

غير أن الجميع كانوا متفقين على أن المجتمع المصرى متخلف ، وأن

الحضارة المصرية أسوأ من حضارتهم ، (١) .

وهذا الازدواج فى مشاعر الأوروبى ونفسيته هو المسئول الأول عن الموقف الاستعمارى ، فإدته التعاظم والتشامخ من جراء أوهام التفوق ومشاعر الامتياز وهو ما أزعج الكاتب الأفريقى وليم كونتون (*Contou*) وقد خبرهم فى بلاده وفى بلادهم فكتب يقول: « إن الانجليزى فى بلاده يختلف عنه فيما وراء البحار... إذ يحاول الانجليزى فيما وراء البحار أن يبرهن على أنه متفوق على الرجل الأسود هناك » (٢) .

وهـــذا صحيح ، لأن « الموقف الإستعمارى يظهر كلما انعكس (الأنا) الأوروبى خارج إطار أوروبا ، أى فى كل مرة يقع فيها اتصال بين الأوروبى والوطنيين (*Natives*) » كما يقول مالك بن نبى (٣) .

وحسبنا كلمة (*Native*) هـذه شاهدا جامعاً على مجمـل الموقف وخلاصة النفسية الاستعمارية ، لأنها ترجمة صحيحة لهذا الوجدان الطبقى أو شعور التمايز بين الأوروبى وأبناء المستعمرات ، يريد بذلك أن ينفى عنهم صفات الأوروبى ومزيته فى الخلق والتفكير ، وفى ذلك حكم عليهم بالتخلف والجمود ، فهم فى تبعية شرعية لهذا الجنس الأوروبى الشريف .

وهم يفلسفون هذه الظاهرة الاستعمارية أو هذا الموقف وتلك النفسية بمركب التبعية (*Complex de dependence*) الذى يزعمونه فى جبلة هـذه الأمم

---

(١) بنوك وباشوات ص ٣٠٠ — ٣٠١ .

(٢) الافريقى ص ٣٨ .

(٣) فى مهب المعركة .

والشعوب وهذه خرافة يكذبها العقل إن قصر فى تكذيبها العلم ، فليس هناك جنس حبته الطبيعة بالمزايا والفضائل ، وآخر أثقلته بنقائص الجهل والتبعية والجمود .

وإذا ما احتكمنا إلى الواقع المشهود ، رأينا هذه الشعوب المتخلفة ذاتها قد بلغ بعضها فى سنين من التحرر والخلاص ، فى هذا العصر ، شأوا مذملا فى مدارج التكنيك (*Teehnipue*) والنظم السياسية والاجتماعية والاقتصادية على السواء .

هذه — إذن — فلسفة خاطئة ، وتبرير سخيف ، يريدون أن يصرفوا بها الناس عما وراء هذا الموقف أو هذه النفسية الاستعمارية من وجدان طبقى أو فلسفة عنصرية لا تؤمن بغير « الجنس الآرى » سيداً فى هذا العالم ، فهو — فى زعمهم — موكّل دون الناس جميعاً بقضية الحضارة ، خالقها يوم لم تكن منذ فجر التاريخ ، وتعهدها وحده يوم انصرف الناس عنها ، وهو فى هـذا العصر الحديث يصل جهدا مبدوءا به ، ويضطلع برسالة فرضتها عليه الأقدار وشاءها له الله ، يقول هتلر « فكل ما نراه من الحضارات البشرية يمت بأصل إلى ثمرة النشاط الآرى الخلاق ، فقد كان الآرى ولم يزل حاملَ المشعل الإلهىّ الذى ينير الطريق أمام البشرية ، فشرارة العبقرية الإلهية انطلقت من جبينه المشرق ، وهو الذى فتح دروب المعرفة أمام الإنسان ليجعل منه سيد الكائنات الحية على هذه الأرض فإذا توارى الآرى فسيسود الظلام ، وتنهار الحضارة البشرية فى بضعة قرون»(١)

ولا أظن وراء هـذا القول فلسفةً تتملق « الرجل الأبيض » وتبرر له كل صنوف الاستعلاء والتطاول على حق الأمم والشعوب .

---

(١) كفاحى ص ٩٩ .

ولا يقال هـذه فلسفة نازية لا يقاس عليها ، لأننا لا نعدم أصول هـــذه العنصرية فى نفوس السابقين عليه من الفلاسفة والمفكرين فى القرن التاسع عشر ، ففردريك لست (*List*) كان يؤمن بهذا الاستعلاء العنصرى *Rrcial* (*Supremancy*) وكان آرثر دى جوبينو (*De Gobineau*) يؤمن بتفـاوت البشر ، والموسيقار الفيلسوف المعروف ريتشارد فاجـنر (*Wagner*) كان يؤمن بالنقاء العنصرى أساسا فى تقويم الشعوب (١) ، يقول المؤرخ البريطـانى فشر : « وتقوم فلسفة الزعيم النـــازى على وجهة النظر التى نالت تحبيذ فاجنر (*Wagner*)ونيتشه(*Nietzsche*) وتأييدهما،أوالتى بشر بها هاوستن تشمبرلين (*Chanbərlain*) قبيل الحرب العظمى ، وهى أن الجنس عمـــاد كل شىء ، وأن روائع العالم الجيدة تمت جميعـــا على أيدى الجنس الآرى ، وحاجج بأن المسيح ودانتى وتوماس أكويناس كانوا بلا ريب آريين ، وأن القوط الذين انحدروا من نفس هـذا الجنس التيوتونى صنعوا لتقدم الحضارة أكثر مما صنعه الرومان » (٢) .

ولا يختلف الساسة والزعماء عن هؤلاء الفلاسفة بل هم تلاميذهم وأتباعهم من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، فكلهم يلتقون على سيادة الجنس الآرى بلا ريب ، ثم هم يختلفون بعد ذلك فيما بينهم على أى شعوب هذا الجنس أسمى من أخيه ، فتشمبرلين يعتقد أن المسيح والقديس بولس كليهما كان آرياً ، حتى إذا دخل فى المفاضلة على الصعيد الأوربى اختص الانجليز بفضل السبق وحق الامتياز

---

(١) النازية بين الايديولوجية والتطبيق للدكتور عادل محمد شكرى .

(٢) تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ص ٦١٧ .

فالجنس الانجلو ساكسونى ـ عنده ـ قد قُدر له أن يكون القوة المسيطرة فى تاريخ العالم ومدنيته » [١] ، وقد كان الشاعر المعروف كبلنج (*Kipling*) على هذا الرأى ، وجاء توماس كارلايل ليحمل عنه هذا الإيمان العارم بسيادة الجنس الآرى على وجه العموم والأنجلو ساكسونى على وجه الخصوص .

إلا أن غيرهم من الساسة الأوروبيين وفلاسفتهم ينازعونهم هذا الحق ، لأن التسليم به تسليم بالحق فى السيادة والاستعمار دونهم ، وهذا ما تأباه الشعوب الأوروبية بعضها على بعض، «فالفرنسى المتطرف فى مدنيته والألمانى الاستعمارى والروسى المأخوذ بالنزعة السلافية ، والأمريكى التوسعى يدينون جميعاً بهذا الإعتقاد العام » كما يقول هوبسون [٢] .

وهذه السيادة أو هذا « الحق الإلهى فى القوة » على حد تعبير هوبسون ، يستمد السند الفلسفى أو المسوغ العقلى من « فلسفة القوة » أو البقاء الأصلح أو « الانتخاب الطبيعى » أو ما شابه ذلك من مبادئ القوة التى تمخضت عنها الفلسفة الداروينية أو الفلسفة البيولوجية ، وكانت زاد الفكر الأوروبى المشترك فى القرن الماضى ، ذلك بأنهم آمنوا بالصراع بين أجناس البشر كالصراع بين أجناس الحيوان والنبات « قانونا طبيعيا » ، يسحق القوى فيه الضعيف ، وفى ذلك الخير للانسانية جمعاء ، لأن السيادة فيها لا تكون إلا للأقوياء الصلحاء ، وهذا هو إنجيل الإمبريالية عاريا عن كل زخرف ، يسحق فيه الجنس الأبيض غيره من الأجناس والشعوب [٣] .

---

(١) الامبريالية لهوبسون ص ٢٧٠ .

(٢) « ص ١٧١ .

(٣) « ص ٢٧٥ .

وفلسفة هذا الإنجيل أو سوره وبنوده تنتهى إلى الطبيعة أو الحق الطبيعى فى السيطرة على العالم ، بدعوى « الوصاية من أجل المدنية » أو « الاضطلاع بعبء الرجل الأبيض » (*Whiteman's burden*) أو « كرامة العمل » أو ما شابه ذلك من الادعاءات ، يريدون بذلك أن يصرفوا الناس عن الجدل فى هذا الحق المزعوم لأنه — عندهم — حق طبيعى ، أرادته الطبيعة ، فلا حيلة فيه ، ولا ثورة عليه ، وقد نسى هؤلاء الناس أن « الفلسفة الطبيعية » ليست كلمة الفصل فى فلسفة الحياة وتفسير الظواهر والأوضاع وإنما هى فلسفة من فلسفات ورأى من جملة الآراء التى تصيب وتخطىء والركون إليها يفتح أبواب الجدل على مصاريعها .

يفتحها على مصاريعها لأننا نصبح إزاء «حق إلهى فى السيادة أو ما يشبه الحق الإلهى الذى لا يفترق عن حق الملوك فى العصور الوسطى . ورحم الله الملك لويس التقى (*Lewis the Pious*) عندما قال فى تعيين ولده العزيز لوثير (*Lothair*) «وقد أرشدتنا العناية الإلهية أن نعينه وريثا لعرش الامبراطورية[1] فالعناية الإلهية هنا هى السند والعناية الطبيعية هناك هى السند والعناية الإلهية - بلا شك - مظلومة هنا كما أن العناية الطبيعية مظلومة هناك .

لأننا إزاء حق إن لم يكن قد طال فيه الجدل ، فهو فى أقل التقدير حق غيبى لأنه يستند إلى إرادة خفية . ونحن لا نعلم أحدا من هؤلاء الفلاسفة قد اصطفته الطبيعة فأفضت إليه بمكنون سرها ليعلنه على الناس فى تفضيل الشعوب والتمييز بين الأجناس . ورحم الله أستاذنا يوسف كرم عندما اعتدهذه الفلسفات التأملية فلسفات رومانتيكية ليس غير[3] .

---

(١) تاريخ الفكر السياسى لسابين ج ٢ ص ٣ ٣ .

(٢) تاريخ الحركة الوطنية للرافعى ح ٢ ص ١٧١ .

(٣) تاريخ الفلسفة الحديثة ، في حديثه عن الفلسفة التطورية .

ولقد جاء كرومر أول عمداء الاستعمار فى مصر ليصدر عن منطق الاستعمار فى مختلف دعاواه وحججه وادعاءاته ، فكان يذيع إصلاحاته على الملأ ، يدعم بها وصاية الرجل الأبيض ، ويثبت جدوى الاستعمار فى هذه الشعوب ، وكانت مجلة « المقتطف » منذ نزحت من لبنان إلى مصر آخر القرن الماضى ، تنشر عنه تقريره السنوى ، وتشيد بما فيه من الإنجازات والمشروعات ، حتى إذا تم خزان أسوان عام ١٩٠٢ ، استضاف الأجانب من أنحـــاء أوروبا ، ليشهدوا آثار السياسة الاستعمارية فى النهضة بالشعوب .

ونسى كرومر أن الاستعمار شرٌ فى ذاته ولا يلد الشر إلا شرا ، فهذا النزر اليسير من الاصلاح تقاضى مصر فوق طاقتها من المال والجهد والكرامة ، شأن قناة السويس التى لن ينسى التاريخ ضحاياها ، ولو نسيها الناس جميعاً .

وجاء عام ١٩٠٨ ليرحل كرومر عن مصر ، وامتنع الناس عن وداعه ، فاصطنعت له الحكومة حفلا ما لبث أن شتم فيه المصريين ، ورماهم بالجحود ونكران الجميل ، فهم ـ عنده ـ عميان « والعميان يولد أبناؤهم مبصرين » .

ولقد ولد الأبناء المبصرون ، وقرأوا التاريخ ، فعلموا أن (شوقى) كان لسان مصر الشجاع ، ومنطقَها الواعى ، وقلبَها الثائر ، يوم رد عليه قوله ، وقبّح ادعاءه بشعر كان فيه نفيه عن البلاد .

أوسعتنا يوم الوداع إهانةً	.·.	أدب لعَمرك لا يصيب مثيلا
قالوا جلبتَ لنا الرفاهة والغنى	.·.	جحدوا الإله وصنعه والنيلا
كم منّـة موهومـة أتبعتَـهـا	.·.	منّا على القَطِن الخبير ثقيلا
فى كل تقرير تقول خلقتُـكم	.·.	أفهل ترى تقريرك التنزيلا ؟ !

وكلما دار الزمن بأبناء هذا الوطن زاد بصرُهم ببواطن الاستعمار ، ووقفوا

على خفايا أسبابه ودوافعه ، وجاء الميثاق ـ آخر الأمر ـ يكشف عن سوآته ، ويعلن حربه ، من جرّاء ما امتص من الدماء واستلب من جهد الشعوب ، يقول « وإذا كانت بريطانيا قد وصلت مرحلة الانطلاق اعتمادا على صناعة النسيج فى لانكشير ، فإن تحويل مصر إلى حقل كبير لزراعة القطن كان شريانا متصلا ينقل الدم إلى قلب الاقتصاد البريطانى على حساب جوع الفلاح المصرى .

إن عصور القرصنة الاستعمارية التى جرى فيها نهب ثروات الشعوب بلا وازع من القانون أو الأخلاق قد مضى عهدها ، وينبغى القضاء على ما تبقى من ذكريات لها ما زالت فيها بقية من الحياة خصوصا فى إفريقيا (١) .

وهذا الموقف الحاسم من « الميثاق » ، إنما هو موقف أمة كابدت كل ماقدمناه من شرور الاستعمار ، من لدنْ الأفاقين ولاخلاقَ المغامرين إلى سخافة الامتياز العنصرى ، ومن القهر الحربى وحق التدخل إلى الكذب والمماطلة فى العهود المبذولة ، ومن ادعاء الاصلاح إلى التبجح بالحماية وحق الوصاية ، ومن اصطناع الحياد الثقافى والتحرر الفكرى إلى الهدم المقصود لكل مظاهر الحضارة والتراث .

وهكذا شاء القدر أن يبلوَ الأمة العربية بكل حذافير التجربة الاستعمارية ، وأن تكون أرضاً تجرى عليها وقائع الاستعمار ، ويستفحل فيها رصيده من الكذب والحنث والادعاء ، وليس وراء ذلك شواهد يأخذهُ بها الأحرار ويدينه بها المنصفون من المفكرين ، يقول هوبسون « بينما يصبح من المتفق عليه بصفة عامة أن تقدم العالم ومدنيته ، هو الأساس الأخلاقىّ الوحيد الذى يبرر التدخل السياسى فى شئون الأجناس الدنيا ، وأن الدليل السليم الوحيد على مثل هذا

---

(١) الميثاق ص ٥١ .

التقدم يكمن فى التربية السياسية والصناعية والأخلاقية للجنس الذى تعرض للتدخل — فإن الشروط الحقيقية لممارسة هذه الولاية غير موجودة بالمرة ...

وبالاختصار فإن الادعاء بحق الوصاية يظل مجرد عمل من أعمال فرض الذات الوقح، إلى أن يوجد « مجلس دولى » حقيقي يقوم بتكليف الأمة المتمدنة بواجب تربية جنس من الأجناس الدنيا » [1] .

وقد كان هوبسون يشك يومها ، فى نهاية القرن الماضى ، فى قيام مثل هـذا « المجلس النيابى » ، على حد تعبيره ، إلا أنه كان يؤمن به حلاً لقضايا الاستعمار ، وضماناً للتعاون الإنسانى فى سبيل الارتقاء بالشعوب .

إلا أن نبوءة الكاتب قد تحققت ، وقامت هذه المجالس الدولية بعد الحربين العالميتين فى هذا القرن ، فقامت « عصبة الأمم » بعد الحرب الأولى ، « وهيئة الأمم » بعد الحرب الثانية ، ولكن كلتيهما لم يغيرا من الأمر شيئاً ،وصح ما كان يخشاه « هوبسون » من حياة التطفل على حساب هـــذه الشعوب تحت شعار التمدين والتحضير .

والآداب العربية فى مصر وفى غير مصر من شعوب الأمـة العربية مليئة بمـا لا حصر له من الثورة على هذه المشاهد والأوضاع ، فهى فى قرارتها ملحمة وطنية تمتد على طول تاريخنا الحديث من لدن الثورة العرابية وغلبة المستعمرين على البلاد فكان هذا أول النكبة التى اختل معها منطق الأمور ، فأصبح الناس فى دوامة من العجب طالت بهم إلى هذا العهد الثائر ، ولقد كان البارودى فاتحة هذه الملحمة من العجب والرفض والاصرار والثورة جميعا حين صاح فى قضاته :

---

(١) الامبريالية ص ٢٥٢/٢٥٤ .

وهل دفاعى عن دينى وعن وطنى ∴ ذنب ألام به ظلما وأغترب

ثم جعلت شعوب الأمة العربية يتقاسم شعراؤها فصول هذه الملحمة بكل مافيها من السخرية بالأوضاع التى اصطنعها الاستعمار اصطناعا ، يقول الرصافى شاعر العـــراق :

لنـــا ملك وليس له رعايا ∴ وأوطان وليس لهـــا حدود
وأجنــاد وليس لهم سلاح ∴ ومملكة وليس لهـــا نقود
وليس الانجليز بمنقذينـــا ∴ وإن كتبت لهم منـــا عهود

ويثور رفيق المهدوى فى ليبيا بمشاعر الاستخذاء واصطناع العملاء :

وإذا الضمائر أصبحت مأجورة ∴ فاقرأ على حر الضمير سلاما

ثم يؤول الأمر إلى الشابى بكل ما فيه من اصرار وعزم وتفاؤل ، فيعلن على الناس كل ذلك مبدأ جامعا وحكما مختصرا :

إذا الشعب يوما أراد الحياة ∴ فلابد أن يستجيب القدر

وأما شوقى شيخ الشعراء فحسبه فى هذه الشواهد أن يسجل عليهم ما لن يهدأ فى النفوس من البغض ومشاعر الحقد والكراهية من جراء قتلهم الشيخ البطـــل عمر المختار :

ياويحهم نصبوا منارا من دم ∴ يوحى إلى جيل الغد البغضاء

تلك هى معالم الملحمة الوطنية التى أفضت إلى ما نحن فيـه من صراع وصلنا حبله بحبل الثورة العالمية على الإمبريالية والاستعمار ، وهذا هو الوجه الجديد فى أدبنا المعاصر الذى يجرى به النصف الثانى من هـــذا القرن صنيع الشرقاوى فى جرأته الصريحة فى خطاب « ترومان » :

وإنى لأعجب لم صوروك حديد الفؤاد بليد الشعور
وأعلم أنك تهوى الزهور
فتنشد ألوانها فى الدماء

ومن هـــذا الوادى شاعر ليبيـا المعـاصر صدقى عبد القادر فى ديوانه « أحلام وثورة » :

ذرة أخرى لهـا بالكف تهديم بهمس
إنها التاريخ يروى قصة من أمس أمس
قصة العلج الأوربى وقد قاد لرمس
مرأة ، طفلا ، وشيخا فى الدجى والليل مغسى
قصة استعمار ليبيا وهى تحيا فى تأسى

وإذا كنا أعرف بمشاعر الأمة العربية وفضائح الاستعمار ، فإننا لا نعدم فى غير الأمة العربية من صور الطغيان ما هو أفضح وأبشع ، فالاستعمار هو الاستعمار تتعدد أشكاله ولكن تتحد دوافعه وادعاءاته ، ولقد اعتملت نفوس الافريقيين بكل هذه الافتراءات ، فسخطوا عليها وسخروا منها ، يقول الـكاتب الإفريقى وليم كونتون (*Conton*) « كأن الآلهة كلها قد أنزلت من القوانين والشرائع ما أوحت به ... أن الرجل الأبيض هو الذى يجب أن يتولى الحـكم ، وأن الرجل الأسود هو الذى يجب أن يخشع لـكل حكم » (١) .

ولقد عرك « كونتون » الحياة الفـكرية والسياسية والاجتماعية على الصعيد العالمى فى بريطانيا ، وأعاد النظر فى أمر أمته ، وقد علم خفايا الفـكر ودوافع

(١) المرجع السابق ص ٣٧ .

السياسة العالمية ، فانكشفت له هـذه الخدع والأضاليل ، يقول « ولـكن الذى فقدناه حقا هو تلك الخديعة الكبرى عن دور الرجـل الأبيض فى إفريقيا ، ودعواه أنه نصف إله ، ويجب أن تظل يداه نظيفتين أبدا — لا من المـال — ولكن من الأعمال اليدوية الخشنة » (١) .

وإذا كان لنا أن نحتكم إلى هذا القرن العشرين ، فإن الاستعمار قد مضى عليه مايزيد على الثلاثة القرون فى مختلف أرجاء العالم وبين مختلف الشعوب، ولايستطيع أحد أن يزعم للناس أنه قد بلغ بشعب من الشعوب غايته المزعومـة فى الترقية والتمدن ، ولو قد صح هذا الزعم — إذن — لاستمسك به النـاس ، وركنوا إلى حضارته أو مذاهبه ونظمه ، ولكن واقع العصر يشهد بأنه مطـارد فى كل أرض ، وأن الحركات التحررية جاهـدة فى تطهير العقول والوجدان ، فضلا عن الأراضى والأوطـــان ، من أدران حضارته البرجوازية اقتصاصاً لقومياتهم المضيّعة ، وحضاراتهم التى تحيّفها بحق وبغير حق ، ومايكون قد علق بهذه الأمم والشعوب من حضارته لا يتكافأ بحال من الأحوال مع هـذه الفروق المتطاولة التى قضاها فى ربوع هذه البلاد يبشر فيهـا بحضارته ، ويدعو فيها إلى مدنيّته بمختلف السبل والوسائل .

وإن أخوف ما يخافه الفلاسفة ومؤرخو الحضارة فى أوروبا اليوم هو هـذا القصاص القومى والحضارى ، وقد بدأت تدور فيـه الدائرة على الحضارة البرجوازية طبقا لرد الفعل أو قانون التحدى الحضارى الذى يقول به المؤرخ الفيلسوف آرنولد توينبى .

---

(١) الافريقى ص ٣٨ .

وأول وقائع هذا الصراع ، ما هو دائر بين هـذه الحضارة وبين الحركات القومية (*Nationalism*)، ثم ما بينها وبين الحضارة الاشتراكية(*Socialism*) الطاغية فى هذا العصر بلا شك (١) ، يقول توينبى « فلقد ظل الغرب إجمالا - منذ فشل الهجوم العثمانى على « فيينا » عام ١٦٨٣ م حتى هزيمة ألمانيا فى الحرب العامة ما بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ - يحظى بالقوة والتفوق على بقية أنحاء العالم إلى درجة جعلت الدول الأوروبية الكبرى لا تحسب - أساسا - حسابا لأية دولة خارج دائرتها .

إلا أن احتكار الغرب لمظاهر التفوق انقضى أجـله عام ١٩٤٥ ، إذ ظهر إلى الوجود منذ ذلك التاريخ ، وللمرة الأولى ، منذ سنة ١٦٨٣ م ، تصادم فى السياسات الدولية كان أحد الطرفين فيه دولة عظمى ذات ملامح غريبة عن مجتمع الغرب القديم .

وكان قيام هذه الدولة (ويعنى بهـا الاتحاد السوفيتى) كإحدى الدولتين العالميتين المتنافستين الباقيتين مؤدياً مرة أخرى إلى قيام صراع ثقافى انضم إلى حلبة السياسة ....

ويلاحظ كذلك أن الروس بعودتهم إلى ميدان الصراع ضد التأثير الغربى... قد قدموا أنموذجا احتذاه الصينيون بالفعل بعد واحد وثلاثين عاماً ، ويحتمل كثيراً أن يحتذيه اليابانيون والهنود والمسلمون » (٢) .

ولا شك أن هذا المشهد من تاريخ العالم اليوم ينبىء بهـذه اليقظة القومية ،

---

(١) راجع على سبيل المثال كتاب « عصر القومية » لهانز كوهن .

(٢) مختصر دراسة التاريخ حـ ٣ ص ٢٧٣ - ٢٧٤ .

وبانتصار الأمم والشعوب لتراثها المهضوم وحضارتها المضيعة ، وجاءت الحضارة الاشتراكية أو الفكر الاشتراكى فجمع الناس على صعيد واحد من الثورة والاقتناع أو الاتفاق ، ذلك بأنه فضح لهم وجه ذلك البرجوازى القبيح الذى اغتصب رفاهيته ونضارته من شقاء الشعوب وذبولها ، يقول لينين : « وإذا كانت مأثُرة الاستعمار هى تربية الزنجى على العمل ... فإن خطر الاستعمار فى أن أوروبا تلقى على كاهل البشرية الملونة كل العمل الجسدى ... مكتفية هى بدور صاحب الدخل » [1] .

تلك هى قضية الاستعمار بخصائصه ونظمه ونفسيته ودعاواه ، وكلها يرتد آخر الأمر إلى روح التدمير المادىّ والمعنوىّ أو النفسىّ والحضارىّ لكل ما ليس بأوروبى ، وهذه الروح فى حقيقتها استمرار طبيعى للروح الإمبريالية الرومانية القديمة التى كان شعارها « فلنحطم قرطاجة » .

ولقد نُكبت الأمــة العربية بهذا الاستعمار أو هذه الروح ، فعوقت وَحدتها ونهضتها ، إلا أن المد الثورى قد عاد أدراجه فى الأمة العربية ، ولن يسكت حتى يبلغ شأوه المقدور ، وهو شأو بعيد لا يحتاج — بعد عون الله — إلا إلى الثبات والمثابرة أو المصابرة والمرابطة بكل معناهما التاريخى والعربى والإسلامى مهما كانت الصعاب .

ولا عذر لناكص أو مرتد ، مهما كانت مكانته ، ومهما كان موقعه ، ومهما كانت الدوافع وأسباب النكوص ، لا عذر لهؤلاء ولا لغيرهم أمام محكمة

---

(١) مختارات لينين م ١ — جزء ٢ ص ٤٢٤ .

التاريخ،فالوحدة — غاية كبرى — يسقط معها كل اعتبار ، لأنها قضية الجيل ؛ فالأمة العربية — وقد طرحت عنها عبء الاستعمار — تتهيؤ لمكانها الطبيعى فى التاريخ الحديث ، وهو مكان — إذا ما استتمت الوحدة أطرافها — سوف تنحل معه كثير من القضايا العربية وعلى رأسها قضايا الحضارة وقضايا الكيان أو الوجود العربى الصحيح .

الفصل الثانى

فى

المستشرقين والمبشرين

وهذان هما الضلع الثانى فى الثالوث ، اجتمعا على تزييف الحضارة العربية والإسلامية ، وهما — بعدُ — مختلفان فى النشأة والهدف ، فالاستشراق تقوم عليه الجامعات والهيئات العلمية ، أما التبشير فالكنائس وما فى حكمها من الجامع والمؤسسات ، وغاية الاستشراق علمية خالصة ، أما التبشير فدينية بحتة ، وتلك غايات نقدرها قدرها ، ولا نضيق بما يبذل فيها من الجهد ، وإنما الضيق — كما قدمنا من الانحراف بهذه الجهود عن وجهتها العلمية أو الدينية إلى خدمة الاستعمار ، أو التعصب على غيرها من الحضارات والمعتقدات .

ومرجع هذا الانحراف إلى تطويع «الروحى» «للزمنى» ، كما يقول توينبى ، أو بمعنى آخر إلى نزول العقيدة الدينية على إرادة الحكم والسلطان ، وبذلها فى سبيل الغايات القومية والسياسية فى العصر الحديث ، يقول توينبى « فلقد انبنى على اتفاق رجال الدين والساسة تردى المبشرين بالعقيدة الدينية فى أمور الدنيا ، فاندفعوا لاستخدام القوة العارمة فى تنفيذ غايات تجافى روح المسيحية خاصة والنزعات الدينية عامة [1] .

---

(١) حضارة الاسلام فى دراسة توينبى للتاريخ لمحمد فؤاد شبل ص ١٧ نقلا عن كتابه المدخل التاريخى للدين .

وهـذا التطويع من أبشع الظواهر التى حلت بالمجتمع الغربى عنده ، لأنه خلط بين الولاء لمدينة الأرض ومدينة السماء بلغة العصور الوسطى ، وهذان الولاءان يتوا كبان فى الفكر المسيحى ولا يتداخلان أو يتعارضان .

أما إذا تعارض كلاهما فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، قضاء مبرم ، وحكم نافذ فى كل دين ، اللهم إلا إذا غلبت المماحكة والملالاة ثم التـأويل والتبرير ، يقول سابا ين (*sabine*) « فـلم يكن المسيحى مطالبا بإعطاء ما لقيصر لقيصر فحسب ، وإنما كان مطالباً باعطاء ما لله لله كـذلك ، فإذا تضارب واجبه نحو حا كمه مع واجبه نحو ربه ، فليس ثمة شك فى قيـامه بواجبه نحو الخالق دون المخلوق » (٢) .

أما الخلط بين الولاءين والانصياع وراء الحا كم فقد أزعج الكثير من النقاد والكتاب ورجال الدين ، وكان « هوبسون » (*Hobson*) من جمـلة المنزعجين الذين أزعجتهم أواصر الارتباط المصطنع بين التبشير والتجارة فى بلاد كالصين ثم المصطنع بينه وبين الاستعمار والإمبريالية فى كل آسيا وبلاد أفريقيا ، ووجه الانزعاج المؤلم ، أن يقع هذا الربط بين قضايا السياسة والاقتصاد ، وبين « قضية ليست مملكتها فى هذا العالم » على حد تعبيره (٣) .

ولم يسلم المستشرقون هم الآخرون من مثل هذا الخلط بين العلم ومطالب السياسة أو الحـكم والاستعمار ، فانحرف فريق منهم عن جادة البحث العلمى والنظرة المحايدة فى الحـكم على تاريخ الشرق وحضارته على وجه الخصوص .

---

(١) تطور الفكر السياسى لسابا ين ج ٢ ص ٢٦٧ .

(٢) المرجع السابق .

(٣) الامبريالية ص ٢١٥ .

ويرتد هذا الانحراف عند المستشرق الألمانى المعاصر «بارت» (*Paret R*) إلى عقلية العصور الوسطى منذ استهدفت «إقناع المسلمين بلغتهم ببطلان الإسلام»، ذلك بأنهم أرادوا للاستشراق أن يكون استمراراً للحروب الصليبية فيحققوا بالقلم ما عجز عنه السيف ، يقول إرنست بيكر (*Ernest Baker*) أستاذ علم السياسة بجامعة كمبردج : «وكان أول من حاول أن يرقى بالدراسات الشرقية ، فيجعل منها أداة لحرب صليبية هادئة تعتمد على أسلحة روحية خالصة هو رجل من قطلان يدعى « رايموندلل » (*Raymund Lull*)، فقد أسس عام ١٢٧٦م كلية للرهبان فى ميرامار (*Miramar*)، وفى عام ١٣١١ قرر مجلس فينا – ولعل هذا كان بإيعاز منه – إنشاء كرسى للغـــات الشرقية فى جامعة باريس ولوفان وسلامنكا »[1] .

وهـذا الأصل التـاريخى المشترك بين الاستشراق والتبشير هو الذى وقف بالغرب كله موقف التنقص والازدراء من حضارة العرب والمسلمين ، لأن الرأى العام الأوروبى كان يستمد من هؤلاء مادته ، ويصدر عن أحكامهم وآرائهم فيما يعتقده فى الشرق من آراء وأحكام ، يقول بارت : «إن العلماء ورجال اللاهوت فى العصر الوسيط كانوا يتصلون بالمصادر الأولى فى تعرفهم على الإسلام ، وكانوا يتصلون بها على نطاق كبير ، ولـكن كل محـــاولة لتقييم هذه المصادر على نحو موضوعى كانت تصطدم بحكم سابق هو أن هذا الدين المعادى لهم لا يمـكن أن يكون فيه خير .

وهكذا كان النـــاس لا يولون تصديقهم إلا تلك المعلومات المسيئة إلى

---

(١) تراث الاسلام ص ١٢٥ .

النبيّ العربى وإلى دين الاسلام » (١) .

وهذه الرواسب الصليبية ، كغيرها من رواسب العصر الوسيط ، تصدى لها الغرب منذ مطالع هذا العصر الحديث ، فرصد لها كل ما أوتى من النزعات الليبرالية أو مبادىء التحرر والعدالة ، فتخلص الفكر الأوربى من كثير من مساوىء الشطط والتواء القصد ، لأنهم حين تجاوزا قارتّهم فى مطالع هذا العصر ، وقعوا على عالم فسيح كان يخفيه الزعم الوسيطى الباطل بأن العالم الفاضل ينتهى عند حدود القارة الأوروبية ، فاندفعوا إليه بكل شغفهم ، فكانت حضارة الشرق أول ما بهرهم منه ، فاتخذوها معلما من معالم الحضاره الإنسانية ، يقتبسون منها ويقتاسون عليها ، صنيع فولتير فى الرسائل الفارسية وجليفر فى رحلاته الخيالية ومونتسكيو فى روح القوانين « فعلمو أن الشرق ليس بربريا كما يدعون ، وإنما أهله أهل روية وحكمة ، كما هم أهل حضارة تعلو — كما جلتها عبقرية منتسكيو — على كل حضارة (*The Ewsogean Mnid 1680 1715, p. 35.*) .

وهكذا خلصتهم الكشوف الجغرافية وانسياحهم فى العالم الحديث من خلق الرفض وخصال التعصب الوسيطى الأعمى ، وحملتهم النزعة « العقلية » فى الفكر والفلسفة إلى الروية « والتعاطف » كما يقول بول آزار ، وتلك أوليات النظر الصحيح والحكم السديد ، ولقد أملت لهم هذه النظرة القوية فى مراجعة الآراء المتواترة وتصحيح الأحكام الموروثة عن العصور الوسطى والقديمة على السواء .

وحسبنا شاهداً صنيعُ كارلايل (*Carlyla*) ، فلقد دحض هذه الرواسب الصليبية التى عملت عملها فى تضليل الرأى الأوربى ، وطبعته بطابع الزراية على العرب والمسلمين دون حجة معقولة أو منطق مقبول ، وإنما هى العصبية ليس غير ،

---

(١) الدراسات العربية الاسلامية فى الجامعات الألمانية ص ٩ ، ١٠

يقول « لقد أصبح من أكبر العار على أى فرد متمدن من أبناء هـذا العصر ، أن يصغى إلى ما يُظن من أن دين الإسلام كذب ، وأن محمداً خداع مزور ، وآن لنا أن نحارب ما يشاع من مثل هـذه الأقوال السخيفة المخجلة ، فإن الرسالة التى أداها ذلك الرسول ما زالت السراجَ المنير لاثنى عشر قرنا لمائتى مليون من الناس أمثالنا ، خلقهم الله الذى خلقنا ، أفكان أحدكم يظن أن هذه الرسالة التى عاشت بها وماتت عليها هذه الملايين التى تفوق الحصر والإحصاء أكذوبة وخدعة ؟

أما أنا فلا أستطيع أن أرى هذا الرأى أبداً ، ولو أن الكذب والغش يروجان عند خلق الله هذا الرواج ، ويصادفان منهم مثـل ذلك التصديق والقبول ، فما الناس إلا بُله مجانين ، وما الحياة إلا سُخْف وعبث وأضلولة ، كان الأولى بهـا ألا تخلق » [١] .

ونحن لا نعدم أمثال هذا الموقف فى بحوث المنصفين من هؤلاء المستشرقين من أمثال لوبون (*Le Bon*) وآرنولد (*Arnold, T.*) والدكتور سيجريد هونكه (*Hunke*) وجاك ريسلر (*Rislar*) ممن نبذوا أهواء التعصب ولزموا جادة الحيدة العلمية ، فأماطوا اللثام — قـدر المستطاع — عن الوجه الصحيح لكثير من قضايا العروبة وحضارة الإسلام ، يقول بول آزار : « إن المسلمين أو العرب المحمديين ـ على حد تعبيره — لم يكتب لهم أن ينعموا بمثل هذا الحظ السعيد الذى أضفاه الأوروبيون على المصريين القدماء ومعتقداتهم ، ووجد محمد (ص) نفسه منبوذا بالألقاب القبيحة كالأفاق والمحتـال الوضيع والبربرى الذى ضيع العالم بالسيف والنار ...

---

(١) الابطال ـ ترجمة محمد السباعى ص ٤٩ واسم الكتاب فى الأصل *Hero dna hero-worship*

إلا أن الأمر حين بلغ هذا الحد من التبذل أدلى العلماء بدلوهم ليتموا أخبار المستكشفين ، وقد شغل هؤلاء الحصفاء بالتاريخ ودراسة الأحداث ...

وقد كشف لنا هؤلاء العلماء عن أمر بديهى ، فلم يكن لجانب كبير من الجنس البشرى كهذا الجانب الإسلامى أن يسير فى آثار محمد (ص) سوى حالم أومصروع ولم يكن دينا على مثل هذا النحو من الفجاجة والطفولة التى صوره بها الأوروبيون أن ينبض بهذه الحيوية ولا أن يبلغ هذا التقدم .

ولو أن الأوروبيين قد خالطوا العرب أنفسهم واختبروا هؤلاء الناس بدلا من أن يواتروا بينهم هذه الأقاصيص الزائفة — إذن لرأوا أن محمدا (ص) هو وأتباعه قد وهبوا خصالا فى العقل والفؤاد سمت بهم عن مكانة الأبطـال الذين صورتهم أجناس العالم الأخرى ، ولننظر إلى الأشياء اللعينة التى قالها الأميون عن المسيحية ، ولننظر إلى السخف الذى أشاعوه عنها .

وهذا كله إنما ينجم عن الحكم على الأشياء بطبع جلف جاف ، خـلا من كل تعاطف أو حدب ...

والحق أن الدين الإسلامى كان دينا مترابطا مثلما كان ساميا ومليئا بالجمال ، بل إن جميع حضارتهم فضلا عن ذلك كانت حضارةً مُعجبة ، فعندما حاق المد البربرى بوجه الأرض، فمن هم الذين سموا بقضية العقل وثقافته ؟ «انهم هم العرب»

(*The Eusopean Mind 1980-1715, p.p· 31.*)

هذه الشواهد من أعلام الفكر الأوروبى فى القرن الماضى وهذا القرن العشرين، فيها من الدلالة ما لا يخفى على الجهد المبذول فى وضع الأمور فى نصابها ، والحد من غلواء الرأى العام الأوروبى فى الحط من شأن الحضارات الأخرى فى العالم وفى التاريخ ، ويجىء الفيلسوف الانجليزى المعاصر برتراند رسل فيدين هـذه الغلواء

ويزيف خرافة الظلام التي يضفونها على عامة العصور الوسطى دون استثناء لحضارات غيرهم من أمم الشرق وشعوب العرب وتاريخ الإسلام ، يقول راسل :

« إن استعمالنا لمصطلح العصور الوسطى (*Dalk Ageo*) للتعبير عن المدة ما بين سنة ٦٠٠ م و سنة ١٠٠٠ م تدل على تركيزنا غير الصحيح على تاريخ أوروبا الغربية وحدها ، ففي الصين اشتملت هذه الحقبة على عهد أسرة (تانج) أزهر العهود للشعر الصيني كما أنها حقبة ملحوظة في بلاد أخرى ، فمن الهند إلى أسبانيا انتشرت حضارة الإسلام الزاهرة ...

أما بالنسبة لنا فيبدو لنا أن حضارة الغرب الأوربية هي الحضارة ، ولكن هذه نظرة ضيقة ... » (*Western Philosophy p. 395.*)

وعلى هذا الاعتبار - كما يقول بارت *Paret R.* تختلف المراحل الأولى للدراسات العربية والإسلامية اختلافاً جوهرياً عما نفهمه اليوم منها .

« فنحن ، معاشر المستشرقين ، عندما نقوم اليوم بدراسات فى العلوم العربية والعلوم الإسلامية ، لانقوم بها قط لكي نبرهن على ضعة العالم العربي والإسلامى... بل نسعى إلى البحث على الحقيقة الخالصة » (١) .

وهذا القول صحيح فى جملته لا ينكره المتخصصون فى الحضارة العربية والإسلامية ممن لهم نظر فى كتب المستشرقين ، شهد بهذا الفضل غير واحد من أساتذتنا ، وعلى رأسهم طه حسين فى مبالغاته المعهودة حيث يقول « وإنما يُلتمس العلم عند هؤلاء الناس ، ولا بد من التماسه عندهم حتى يتاح لنا نحن أن ننهض على أقدامنا ونطير بأجنحتنا ، ونسترد ما غلبنا عليه هؤلاء الناس من علومنا وتاريخنا وآدابنا » (١) .

(١) الدراسات العربيه الاسلامية في الجامعات الألمانية ص ١٠ .

(٢) في الأدب الجاهلي ص ١١ .

وقلنا مبالغات طه حسين لأننا نعلم من الأمير شكيب أرسلان غير هذا الرأى بل نعلم منه نقيضه ، وعلى ما فى الأمير من احتراز شديد ، نراه يقول «أما هؤلاء المستشرقون ... فإذا عثروا على حكاية شاردة جعلوها معياراً ومقياسا ، ويرجع كل هذا التهور إلى قلة الاطلاع فى الأصل ، وهذا إذا لم يشُب ذلك سوء القصد، لأن الغربى لا يبرح عدوا للشرق ورقيبا عليه ، والنادر لا يعتد به » (١) .

وبين طه حسين والأمير أرسلان يقف الدكتور هيكل موقفا وسطا، لا يغمط المستشرقين جهدهم فى البحث والتنقيب ، ولا يسمو بهم على مظنة الخطأ أو التردى فيه ، ولكنه يعود فيلقى علينا عبء النقد وتمحيص كلامهم ، فى سبيل الاهتداء إلى مقطع الحق فيما يكتبون عن حضارتهم أو يحكمون به عليها : « فمن الحق علينا للغرب ـ إذن ـ أن نقول إن ما يقوم به علماؤه اليوم من بحوث نفيسة فى تاريخ الدراسات الإسلامية والدراسات الشرقية قد مهد لأبناء الإسلام وأبناء الشرق أن يتزودوا من هذه البحوث وتلك الدراسات ، وأن يكونوا أكبر رجاء للاهتداء إلى الحق » (٢) .

وهذا هو المنهج القويم الذى اتبعه هو فيما كتبه عن حياة محمد وأبى بكر الصديق ، فعرض كثيراً من قضايا العروبة والإسلام مما أثاره المستشرقون من أمثال جمع القرآن وقصة الغرانيق والإسراء والمعراج وما شابه ذلك مما يجدون فيه مغمزاً على الإسلام ، أو مأخذاً يأخذون به أتباعه والمتدينين به وقد كان له فى كل ذلك رأى مقنع ، وكلمة مسموعة بين المتخصصين والدارسين .

---

(١) الرد على الأدب الجاهلى ص ١٠٠ .

(٢) حياة محمد ص ٦ .

وهذا المنهج الوسط قــد التقى عليه جمهور المعنيّين بالمستشرقين والمترجمين لآثارهم على وجه الخصوص ، ذلك لأنهم وجدوا أنفسهم عندالترجمة إزاء أحكام فى أمور الحضارة والدين لا تتفق مع المعروف أو المأثور ، وهـذا الحرج ينتهى بكثير من التراجمة إلى الاعتذار عنهم أو التعليق عليهم، أو تصحيح الوقائع وتصويب الأحكام ، يقول الدكتور تمام حسان فى تقديم ترجمة « الفكر العربى ومكانه فى التاريخ » للمستشرق أوليرى (*O'leary*) : « وحين قرأت هذا الكتاب لأول مرة راعنى منه موقفه من الثقافة العربية ، وشق علىّ أن يقرأه بعض القادرين على قراءة اللغة الانجليزية من العرب ، فيعتقدون ما فيه من طعن على العرب دون أن تكون لهم المقدرة على رد آرائه ، فمعظم الذين يقرأون الانجليزية عندنا من غير المتعمقين فى الثقافة العربية القديمة ، لهذا قررت أن أترجم هـذا الكتاب إلى اللغة العربية ، وأن أعلق على ما يمكننى التعليق عليه من مغالطاته ...

على أنه يجدر بى ألا أسلُب هذا الكتابَ حقَّه من الثناء ، مهما كان ميالا إلى التحامل على الثقافة العربية ، ذلك أن المؤلف قد توفر له من الظروف ما كان كفيلا أن ينتج كتابا من الدرجة الأولى من حيث سعة الأفق الفكرى . وغزارة المنهل الذى يستمد منه معلوماته » (١) .

ولقد ذهب الدكتور حسن ابراهيم حسن هو وصاحبه هـذا المذهب العلمىّ المنصف فى الاعتراف بالفضـــل ، والمؤاخذة على ما يستحق المؤاخذة ، فكتبا يقولان فى تقديم « السيادة العربية » الذى ترجمـــاه عن المشتشرق فان فلوتن (*Van Vloten*) « ولم يقتصر عملنا على مجرد نقل الكتاب إلى اللغة العربية ،

---

(١) الفكر العربي ومكانه في التاريخ ص ١١ ــ ١٢ .

بل عُنينا فى الوقت نفسه بنقد بعض ماذهب إليه المؤلف من الآراء التى لا تتفق والبحثَ التاريخىّ النزيه ...

وعلى الرغم من ذلك فالكتاب فى جملته كنز ثمين ، يدل على ما امتاز به المؤلف من دقة البحث ، وسعةَ الاطلاع ، وتقصى الحقائق،وهو مما لايستغنى عنه المشتغلون بالتاريخ الإسلامى فى البلاد الإسلامية » (١) .

وقس على تراجمة هــذين الكتابين غيرهم من تراجمة « تراث الإسلام » « ودائرة المعارف الإسلامية » و « تاريخ الشعوب الإسلامية » وغيرها من أمهات كتب المستشرقين .

وأبلغ من كل ذلك فى الدلالة على حرص المترجمين من جرّاء مايصادفهم من الحرج والعنت ما صنعه نبيه فارس ومنير البعلبكى ، فلقد عهدا بتاريخ الشعوب الإسلامية لبروكلمان (*Brockelmann*) إلى الأستاذ الدكتور عمر فروخ بعد أن ترجماه ، ليعلق على ما جاء فيه من أمثال هذه الآراء والأحكام (٢) .

جاء فى دائرة المعارف الإسلامية فى الحديث عن سيدنا إبراهيم مقال أجمع فيه شبرنجر (*Sprenger*) وسنوك هرجرونيه (*Hergronje*) وفنسنك (*Wensink*) على أن القرآن لم يحتفل بإبراهيم ، ولم يذكر أبوته لإسماعيل ، ولا أبوته للإسلام إلا فى السور المدنية ، وسر هذا الاختلاف أن محمداً اعتمد على اليهود فى مكة ، فلما اتخذوا حياله العداء ، لم يجد بداً من أن يلتمس غيرهم ناصراً ، « هناك هداه ذكاء سديد إلى شأن جديد لأبى العرب إبراهيم ، وبذلك استطاع

---

(١) راجع تقديم الكتاب للمترجمين .

(٢) راجع تعليقات الدكتور فروخ على الكتاب .

أن يتخلص من يهودية عصره ليصل حبله بيهودية إبراهيم ، تلك اليهودية التى كانت ممهدة للاسلام » (١) .

ومؤدى هذا الادعاء أن الرسول قد اختلق هـذه الصلة بينه وبين اليهود استنصاراً بهم فى المدينة ، فلما أبوْا إلا عداءه ، جازهم بهـذه الصلة إلى أبيهم إبراهيم ، فرد إليه الإسلام ، ورد العرب إلى ابنه إسماعيل .

وهم يسوقون هذا الادعاء على نحو يحتاج تفنيده إلى العـلم بآيات القرآن ، وترتيب الأحداث ، وتمحيص الأخبار ، وما شابه ذلك مما تخلو منه أذهان القراء وعامة الباحثين .

ولقد رد هـذا الافتراء محمد فريد وجدى وعبد الوهاب النجار كلاهما ، وأثبت المترجمون هذا الرد فى النسخة العربية ، أما النسخ الأجنبية فخلُو من ذلك التعليق بالطبع ، ولا حيلة لنا مع القارىء الأجنبى فى هذا الشأن أو غـيره من الشئون التى تخلق رأيا عاما مضللا يضر بقضايا العرب والإسلام .

ونشر هذا الافتراء ومثله فى دائرة المعـارف يضاعف من خطره فى بلبلة العقول والأفهام ، فالشائع المعروف أن دوائر المعارف بما تحشد من فحول العلماء وأساطين الفكر حجة فيما تمحو وتثبت ، ثم هى آخر الأمر أول المراجع التى يتجه إليها الذهن عند الحاجة العاجلة أو المستأنية على السواء .

ولقد أحدثت هذه الافتراءات آثارها بين الباحثين فى مصر وغـيرها من البلاد العربية ، فتعصب لها قوم ودعا لها آخرون ، ولقد كان طه حسين من أول

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية ـ الترجمة العربية لمادة ابراهيم .

هؤلاء المتعصبين لهذه القضية وغيرها من قضايا الأدب والتاريخ ، فنادى ببعض ذلك فى كتاب « الشعر الجاهلى » ، ولكن الرأى العام فى مصر ثار عليه فعدل عن دعواه ، وأصلح منها فى كتابه الشائع عن « الأدب الجاهلى » ، وانتهى الأمر به وبالناس عند هذا العدول والإصلاح .

ولكن الخطر الأشد هو الطعن فى قدسية القرآن ، لأن هذا القول يوحى بأن الرسول يتملق اليهود نزولا على الظروف والمقتضيات .

وينفرع على هذا الخطر العَقدى خطر آخرُ سياسى ، لأن هـذا الزعم يهيء التشكك فى قضية الصراع المفروضة على الناس اليوم ، ويوحى بالتسمح فيما لا تقبله الكرامة ، ووجدان العدل ومشاعر الجهاد .

ويدرك الصهاينة أمثال هذه الآثار البعيدة لهذه الكتب والمراجع ، وأثرَها العميق على الباحثين وعامة المثقفين ، فهم دائما أعضاء فى هيئات تحريرها ، يمحون ما يشاءون فى تاريخ غيرهم ، ويثبتون ما يشاءون فى تاريخهم ومعتقداتهم ، ولقد كشف أحدهم من المناوئين للصهيونية عن هذا العبث بحقائق التاريخ ، فكتب يقول « ولسر خفى تمتاز مملكة الخزر بأن تاريخها محذوف من مراجع التاريخ الرسمية فى الولايات المتحدة ومن مقررات التاريخ فى المدارس والكليات » [1] .

يريدون بذلك ألا تشيع نسبتهم إلى آبائهم من الخزر فيسقط حقهم التاريخى فى فلسطين ، لأن الخزر تهودوا فى العصور الوسطى ليس غـير ، وصحة دعواهم تقتضى اتصال النسب بينهم وبين اليهود الأصلاء الذين كانوا على عهد عيسى عليه

---

(١) *The Egyptian Gazette* فى ٦٨/١١/٦ الملحق الخاص ببحث الأستاذ بنيامين فريدمان بعنوان *Fact for Fact*

السلام فى ربوع فلسطين ، ليصح ادعاؤهم بأنهم شعب الله المختـــار وسلالته المصطفون (٢) .

وعلى هذا الأساس يقول الكاتب اليهودى الأمريكى المعاصر ألفريد ليلينتال : « إن الفلسطينيين لهم حق أكبر فى العودة إلى بلادهم من « جولدا مائير » التى يمكن أن تكون من نسل أناس تحولوا إلى اليهودية ولم يسكن أى من جدودها الأراضى المقدسة من قبل على الإطلاق » (٢) .

وهذا الشاهد على سوء القصد فى البحث والاستقصاء يغنى عن كل شاهد عداه ، لأنه جامع لأطراف البلبلة الدينية والتاريخية والقومية ، وكلها يفضى بعضها إلى بعض ، لا إفضاءً نصطنعه أو نعتسفه ، وإنما هو إفضاء الواقع الملموس ، لأنها دعاوىَ أخطبوطية لا يدرى الناس أين طرفاها ، فإذا أصبحت منها على بيّنة اتهموك بالتعصب، فإن لم يفلحوا رَمَوْك بالجمود الفكرى ، وكنت عندهم عدوا لحرية العلم والبحث ، والعلم والبحث منهم براء فى أمثال هذه الأمور على وجه الخصوص .

الإعجاب — إذن — بالمستشرقين وباتساع آفاقهم فى البحث والتمحيص لايسوّغ ما يذهبون إليه من أمثال هذه النتائج والأحكام ، وإنما ينبغى التصدى لهم متى كانت آراؤهم مطية الصهيونية والاستعمار ، يصرفون بها النـــاس عن معتقداتهم الدينية وعواطفهم القومية ، فالخلُق الاستعمارى بما فيه من مَكيافيلية رأيناها فى الفصل السابق ، قد أبقى على رواسب العصور الوسطى ، أو ما يحتاج

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الأهرام نقلا عن مؤتمره الصحفى المعقود فى القاهرة فى مايو ١٩٧٠ .

إليه منها ، يشكك بها الشرق فى حضارته ، ويزيف له نظمه وفلسفة حياته ، وقد وجد فى فريق المستشرقين خير معين له على هذا البلاء .

ولقد أحس الناس من اللورد كرومر هـذا الاتجاه العجيب على الرغم من تكتمه وشدة احتياطه ، فكتب حافظ يقول :

إذا شئت أن تلقى السعادة فيهم ... فلا تك مصريا ولا تك مسلما

وأسوأ ما يكون هذا التهجم أو الغزو الفـكرى متى أصاب الأمـة فى عنفوان نومها ، وهى غارقة فى حمأة التخلف والجمود ، ولا عاصم لها من اليقظة أو الروية والتفـكير السليم ، فاختلت موازين العروبة ، واضطربت مبادئ السياسة وقضايا الاجتماع ، فرأينا أقواما يريدون لنا أن ننسلخ من شرقيتنا وعروبتنـا لندخل فى الغرب جملة وتفصيلا ، « لنـكون لهم شركاء فى الحضارة خيرها وشرها ، حلوها ومرها ، ما يُحب منها وما يكره ، وما يحمد وما يعاب » على حد تعبير أساتذنا الدكتور طه حسين (١) .

ولا عذر لطه حسين فى هذه المبالغة إلا ما كان عليه عامة الناس من الجمود ، ثم العداء المستحكم بينهم وبين الحضارة الأوروبية عن سوء فهم أو تقدير .

وأبلغ ما يكون التشكيك والبلبلة إذا جاءت هذه الدعاوى الجريئة على أيدى العلماء والأدباء ، وهم القدوة وموضع الثقـة فى الأمم والشعوب ، وأنت تقرأ تاريخ الفـكر فى الجيل الماضى، فترى نفراً ينزلون على حكم الاستعمار والاستشراق أحدهما أو كليهما ، لا يكادون يؤمنون بالشرق وحضارته ، وكتبوا فى ذلك كلاما

---

(١) مستقبل الثقافة فى مصر ، ص ٤١ .

موزعا بين كتب الخاصة ومجلات العامة على طول النصف الأول من هذا القرن .

ولقد تتبع هذا الكلام وأحصاه ورد عليه رائد العروبةفى المشرقالإسلامى أبو خلدون ساطع الحصرى فى « دفاع عن العروبة » ، وفى « آراء وأحاديث فى القومية العربية » وفى « ما هىالقومية» ، وفى غيرها من كتبه ومحاضراتهومذكراته وحولياته فى هذا الصدد على وجه الخصوص .

أما فى المغرب الإسلامى فقد تتبع ذلك مالك بن نبى ، واختص دعاوى الاستشراق وبحوثهم بالرد والتفنيد ، وهذا ظاهر فى جملة كتبه التى ترجمت عن الفرنسية أو التى كتبها هو بالعربية بعد أن تعلمها وحذقها ، وعلى رأسها «الظاهرة القرآنية » و « وجهة العالم الإسلامى » و « تأملات فى المجتمع العربى » وما إليها.

وممن نهج فى مصر هذا المنهج الأستاذان الدكتوران محمد محمد حسين ومحمد البهى فى كتابيهما عن الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، والفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى .

ومن هذه الكتب جميعاً نرى عرضاً لألوان من الشطط وسوء القصد فى التجنى على الشرق وحضارته بلا سند من النظر الصحيح ، وإنما هو المبالغة فىالاستغراب (*Westernization*) أو الافراط فى التفرنج على حساب العروبة والإسلام .

ولا يبدر إلى الذهن أن البحث الجاد فى هذه المقدسات يكرثنا فى شىء ، مهما اختلفت به النتائج ، وآل إلى مالا يُرضى نفوسنا من الاحكام ، لأننا نعلم أن البحث العلمى لا يخضع الأهواء وتملق الرغبات ، وإنما الذى يكرثنا هو انتفاءُ الجد وروح العلم فى هـــذه البحوث والنتائج ، ثم اتباع فريق من عامة العرب والمسلمين لها عن قصد أو غير قصد ، فالأستاذ سامى الجريدينى سكرتير الحزب

السورى يدعو هو الآخر فى مطلع هذا القرن إلى هذه الفرنجة أو الأوروبية الخالصة » ، ويحتج لدعواه بغلبة الغرب وسلطانه فى هذا العصر الحديث يقول : « فقد كان فى الشرق حضارة عمته ، وامتد إلى الغرب سلطانها ، فوقفت الحضارتان وجها لوجه ، ودام النزاع بينهما قروناً ، وها نحن أولاء نرى الغلبة للحضارة الغربية » .

فمن العبث عنده — إذن — أن نعتد بحضارتنا المغلوبة أو نتمسك بجامعاتها فى الفكر والسياسة (١) .

ولو أخذنا بمعيار الغلبة فى تقويم الحضارات لاختلت موازين القيم ، لأننا سنحكم بالفضل لكل غالب مهما كانت حضارته ، وقد رأينا شعوباً مغلوبة حكم لها العلماء والمؤرخون بالفضل على الأمة الغالبة ، شأن الرومان مع اليونان ، والعرب أو المسلمين مع التتر والأتراك ، فاليونان والعرب كلاهما قد انهزم فى ميدان الحرب ولكنه انتصر فى ميدان الفكر والحضارة .

ولو أعملنا هذا المعيار فى العرب وحدهم حكمنا على حضارتهم حكمين متناقضين ، لأنهم غلبوا على الرومان والعصور الوسطى ، والرومان والعصور الوسطى آباء الحضارة الأوروبية الغالبة عليهم اليوم ، فهم عظماء يحمدون على حضارتهم يوم غلبوا على أمرهم ولا تحمد لهم حضارتهم يوم غلبوا » .

وأغلب الظن أن مثل هذا المنطق لا يستقيم فى العقول إلا إذا عمدنا إلى المماحكة ، وأحلنا فى التخريجات والتأويلات ، لأن الحضارة أمرها واحد ولا شأن لها باختلاف الناس عليها .

---

(١) الاتجاهات الوطنية ج ٢ ص ٨ .

والحضارات الإنسانية تقاس بما تضيفه إلى البشرية من قيم التقدم والرقى وهما معيار خالد ، يعبث به العابثون ويتجاهله المتجاهلون ولكن البشرية لن تعدم الصوت المسموع الذى ينيط الفضل بأهله على مر العصور .

ولقد ذهب المرحوم أحمد أمين هو الآخر إلى أن « الشرق لا يمكن أن تكون له مدنية خاصة به تخالف فى أسسها مدنيـة الغرب ، إلا إذا أمكن أن يؤسس مدنية قوية تستطيع أن تسود المدنية الغربية ، وتكون مدنية العالم وذلك ما ليس فى مُكنته الآن ولا فى المستقبل » (١) .

ومن الغريب أن يذهب المرحوم أحمد أمين هـذا المذهب ، وهو صاحب التآليف الفذه فى حضارة العرب والإسلام ، وعلى رأسها السلسلة التى تضم « فجر الإسلام » و « ضحى الإسلام » و « ظهر الإسلام » .

ولا تفسير لمثل هذه المواقف التى اصطنعها هؤلاء الفريق من الأساتذة إلا انخداعهم فيما فرضه الاستعمار عليهم من قيم هذه الحضارة البرجوازية ، وانصرافهم عن الخلل الكامن فى صميمها ، فزعموها حضارة الحضارات ، وغفلوا عن الصراع الناشب بينها وبين الفكر الاشتراكى الطاغى على ذلك العهد ، ولو قد فعلوا لما أسلموا لها القياد على هذا النحو الذى لا يرضاه أحد فى حق نفسه وفى قضايا أمته وجدوى حضارته .

ويبدو أن هذا الموقف كاد يكون عاماً بين الناس فى مطلع هذا القرن ، صدر عنه المرحوم حسين رشدى عشية إعلان الحماية على مصر ، وهو رئيس الوزراء على ذلك العهد ، وآزره غيره من ذوى الحل والعقد ، كما صدر عنه فريق من

---

(١) الاتجاهات الوطنية ج ٢ ، ص ١٩٣ .

الأدباء وعلى رأسهم حافظ إبراهيم يوم نصح السلطان أن يقبل هـذه الحماية فقال فيما قال :

فو ال القوم إنهم كـرام .·. ميامين النقيبة حيث حلوا

فإن صادقتهم صدقوك ودا .·. وليس لهم إذا افتتشت مثل

ولا يرجع هذا الموقف العـام إلا إلى ما أسلفنا من الانخداع أو التظاهر بالانخداع ، نزولا على عوامل الخوف أو طلب الحظوة والجاه عند المستعمرين ، فالتاريخ ينبئنا بأن الكثير من هؤلاء الساسة والأدباء كانوا على غير هذا الاعتقاد إذا خلوا إلى عواطفهم القومية ، وغلبت ضمائرهم العلمية والأدبية ، وها نحن أولاء نقف اليوم ـ بلا شك ـ على أكتاف هؤلاء الباحثين أنفسهم بمـا خلفوا لنا من مشاعر العزة الوطنية والتشامخ الحضارى .

وسواء صح هذا التعليل أم لم يصح ، فإن الزمن لم يكد يدور دورة تزيد على نصف القرن ، حتى رأينا الواقع الذى نعيش فيه اليوم ، يكذب ما زعمه النـاس بالأمس فى ضآلة الشرق وتفاهة حضارته ، وإذا القومية العربية بكل ما أوتيت من ذخر نفسى ورصيد حضارى ، تلتقى عندها مواثيق الثوار فى الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها ، يقول البيطار : (والقومية التى تضم أشتات الأمة العربية بعد أن جزأها الاستعمار ، وفرض عليها التأخر ، وأخرجها من حلبة الإبداع الحضارى خلال قرون من الزمن ، هى التى ستعيد هذة الأمة إلى تلك الحلبة ، فإذا هى من جديد عامل فعال فى إثراء الحضارة الإنسانية)(١) .

ويجىء الميثاق فيتخذ هذه الحضارة أساساً يلتقى عندها الفكر العربى مـع

---

(١) السياسة العربية بين المبدأ التطبيق ص ١٤٢ .

غيرها من الحضارات الإنسانية العالمية (يأخذ منها ويعطيها لا يصدها عنها بالتعصب ولا يصد نفسه عنها بالعقد) [١] .

وهذا الموقف فى جوهره استمرار طبيعى لموقفنا التاريخى أو بمعنى آخر ، لموقف الفكر العربى وحضارته من الفكر اليونانى وحضارته ، والرومانى وحضارته ، فضلا عن الفارسى والهندى وغيرهما من حضارات العالم القديم ، فلقد جرينا مع كل هذه الحضارات على سُنة الأخذ والعطاء ، اختياراً لا اضطراراً ، نزولا على حكم المبادئ الإسلامية فى السعى إلى الحكمة (ضالة المؤمن) ، فهو (ينشدها أنى وجدها) لأنها الحق ، وليس وراء الحق إلا الضلال .

وحضارة هذا موقفها من الحضارات ، لا تصد عن خير تلتمسه فيها ، كان من الطبيعى أن تغنىَ هذا الغنى العظيم الذى يزهو به أهلها ، ويُملى لهم فى الاستمساك بها ، والالتقاء على الإيمان بجدواها وضرورتها ، وهى من وراء ذلك تجمعهم على صعيد واحد من الفكر والسياسة والشعور .

وكان من الطبيعى كذلك أن يستهدفها المستعمر بالعداء ، وأن يلتمس كل طريق لتزييفها والحط منها ، وقد وجد بُغيته فى ذلك الفريق من المستشرقين الذين اضطلعوا معه بسياسة الحرب والاستعمار ، فاشتغلوا فى السفارات والقنصليات ، وما فى حكمها من الهيئات والتنظيمات التى تقوم على شئون العالم العربى والإسلامى على وجه الخصوص ، وكان على رأسهم الأستاذ ماسينيون (*Mssignon*) وليفى بروفنسال (*Levi Provencol*) فقد اشترك كلاهما فى حرب الدردنيل واشتغل كلاهما فى وزارة الخـــارجية الفرنسية مستشارا للشئون الإسلامية فى بلاد إفريقيا .

---

(١) الميثاق ص ٩

ومثلهما باسيه (*Basset*) وهيوار (*Hnart*) وجاستون فييت (*Gaston Wiet* ، فكلهم رصد نفسه وعلمه واستشراقه لسياسة بلاده فى ربوع الشرق العربى وبلاد العالم الإسلامى، يقول عميدهم المستشرق الألمانى كارل بروكلمان فى تقديم كتابه العظيم عن « تاريخ الشعوب الإسلامية » لا تزال كتابة تاريخ الشعوب والدول الإسلامية منذ نشأتها حتى الوقت الحاضر ضرباً من المحاولة الخطرة ... ولا يجرؤ فرد واحد على النهوض بهذا العبء ، ومع ذلك فمن الخير فيما يبدو أن نقدم المعنيّين بمسائل السياسة الدولية ، نظره طارئة عن مصاير المسلمين التى تتشابك اليوم بأحداث العالم على العموم ، بأكثر مما تشابكت فى أى وقت مضى » [1] .

وهؤلاء أعلم بمواطن الريب وموضع الشبهات فى حضارة العرب وعقائد المسلمين ، فأثاروا كثيراً من القضايا التى يخفى أمرها على عامة الناس فى الأمور الدينية والقومية والحضارية .

وكانت قضية « الشعوبية » من أخطر قضايا الاستشراق التى حاول المستعمر أن يفرق بها بين شعوب الأمة العربية ، تحقيقا « لفرق تسد» (*devide govesn*) الذى ورثه الغرب عن الامبريالية الرومانية القديمة (*Divide et impesa*)، وسار عليه الاستعمار فى شعوب الأمة الواحدة ، وبين طوائف الشعب الواحد ، فلقد جاء الاستعمار فى القرن الماضى والأمة العربية يجمعها إلى غيرها من شعوب الشرق ذلك الولاء الإسلامى الموروث ، الذى عبر عنه الفقهاء « بدار الإسلام »، فكانت بذلك سداً منيعاً يقطع الامتداد الاستعمارى إلى الهند ،وغيرها من شعوب الشرق الأقصى والأدنى على السواء ، يقول لورانس براون « لقد كان تُخوّف

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٨

بشعوب مختلفة ، ولكننا بعد اختبار لم نجد مبرراً لمثل هذا الخوف ...

لقد كنا نخوف من قبل بالخطر اليهودى ، والخطر الأصفر ، وبالخطر البلشفى، إلا أن هذا التخوف كله لم يتفق مع ما تخيلناه ، فلقد وجدنا اليهود أصدقاء لنا، وعلى ذلك يكون كل مضطهد لهم عدونا الألد ، ثم رأينا البلاشفة حلفاء لنا ، أما الشعوب الصفر فهناك دول ديمقراطية تقاومها ...

ولكن الخطر الحقيقى كامن فى نظام الإسلام وفى قدرته على التوسع والإخضاع وفى حيويته ، إنه الجدار الوحيد فى وجه الاستعمار الأوروبى »[1] .

وكان الأفغانى ومحمد عبده يدركان هذه القوة الكامنة فى الإسلام ، فاستهدفت دعوتهما حفز الهمم ، والاستمساك بآصرة الوحدة الإسلامية ، فكان العداء التاريخى المعروف بينهما وبين المستعمر ، وكان « تهييج الخواطر » تهمة التهم التى شرعها فى وجهيهما [2] ، يريد بها أن يمسكها عن إيقاظ المشاعر ، والإبقاء على الشرق جثة هامدة أو « جسدا ميتاً » تجرى الأمور لغاياتها ، وهو لا يجرى إلى غاية واحدة .

وأنت تقرأ ما كتبه الأفغانى والأستاذ الإمام فى هذا الصدد ، وفى مصر وفى سوريا وفى باريس ، فتقع على هذه النهضة وخطة سيرها فى النمو والارتقاء ، وهى ـ ترتد آخر الأمر ـ إلى قانون الفعل ورده ، لا إلى العصبية الدينية كما يزعم المضللون من هؤلاء المستشرقين والمستعمرين ، فالاستعمار حين دهم الشرق على غرة ، لم يجد الشرق مناصاً من الفزع إلى الولاء الإسلامى الموروث ، ليقف به

---

(١) التبشير والاستعمار لعمر فروخ ، ص ١٧٨ نقلا كتاب لورانس براون « الاسلام والتبشير »

(٢) راجع تاريخ الأستاذ الامام التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر ج ١ ص ٨٤

صفاً واحداً واحداً فى وجه هذا الدخيل ، ولو قد بحث الشرق يومئذ عن ولاء آخر لما وجد غير هذا الولاء حاضرا ، ضرورة تفرضها ظروف الغازى وأوضاع المغزو على السواء ، يقول الأستاذ الإمام (إن الرزايا الأخيرة التى حلت بأهم مواقع الشرق جددت الروابط وقاربت بين الأقطار المتباعدة بحدودها ، المتصلة بجامعة الاعتقاد بين ساكنيها ، فأيقظت أفكار العقلاء ، وحولت أنظارهم لما سيكون من عاقبة أمرهم ، (١) .

ولكن الاستعمار لا يعنيه منطق الظروف ولا حكم التاريخ ، لأنها ظروف الشعوب المستضعفة وتاريخ الأجناس الدنيا ، ولا كرامة لهؤلاء ولا هؤلاء ، فكانت هذه الجامعة الإسلامية دعوة إلى التعصب ، ودعوة إلى العصور الوسطى ، ونسى الاستعمار أنه هو الصليبية بعينها ، بل هو أخطر استمرار لها فى التاريخ الحديث ، وإنما أراد بذلك الاتهام أن يصرف الناس عن كل ولاء يجمعهم عليه فى الحرب والكفاح ، ورحم الله حافظا عندما سخر من هذه التهمة الظالمة سخرية لاذعة عندما قال :

أو كلما باح الحزين بأنة ... أضحت إلى معنى التعصب تنسب

وأعجب العجب أن نعود إلى أديناور (*Adenauer*) مستشار ألمانيا الغربية الأسبق فنراه يقول على رؤوس الأشهاد : (إن خلاص الغرب وخلاص الحضارة المسيحية لن يكون مستطاعا إلا بحلف بين القوى السياسية التى أسسها المسيحية ، وهذه الأحزاب المسيحية القوية قادرة على ذلك ، وحسبى أن أشير إلى الأحزاب المسيحية التى فى إيطاليا وفرنسا وسويسرا ولكسمبرج وبلجيكا وهولندا وألمانيا والنمسا) (٢) .

---

(١) تاريخ الأستاذ الامام جـ ١ ص ٢٩٥ .

Adenauor, K. : World Indivisible, p. 14 (١)

ومع هذا لم نسمع أحداً من الناس رماه بالتعصب الديني ، على الرغم من تزييفه الولاء القومي بذلك على محك الولاء الديني ، وقد عبر عن كل ذلك بقاموس الغرب المسيحي من الخلاص (*Salvation*) وما شابهه من المصطلحات الدينية الخالصة ، وهذا من أغرب المقاييس في الحكم على الناس ، وفي تقويم المذاهب والاتجاهات ، ورحم الله القائل « تشركني في الفعل وتفردني بالعجب » .

وإنما ضربنا المثل بأديناور لأنه رجل دولة وسياسة قبل أن يكون رجل دعوة وإصلاح .

ومع هذا فقد رد الأفغاني والإمام هذه التهمة وأزاح كلاهما هذه الشبهة ، فقد جاء عنهما في العروة الوثقى عام ١٨٨٤ . « ولا يظن أحد من الناس أن جريدتنا هذه بتخصيصها المسلمين بالذكر أحيانا ، ومدافعتها عن حقوقهم ، تقصد الشقاق بينهم وبين من يجاورهم في أوطانهم ، ويتفق معهم في مصالح بلادهم ، ويشاركهم بالمنافع من أجيال طويلة ، فليس هذا من شأننا ولا نميل إليه ، ولا يبيحه ديننا ولا تسمح به شريعتنا ، ولكن الغرض تحذير الشرقيين والمسلمين خصوصا من تطاول الأجانب عليهم ، والإفساد في بلادهم ، وقد نخص المسلمين بالخطاب لأنهم العنصر الغالب في الأقطار التي غدر بها الأجنبيون وأذلوا أهلها أجمعين » . (١)

ولا يقال هذا كلام من باب السياسة واستقطاب الأتباع ، لأن الأفغاني والإمام كليهما كان منفياً عن وطنه ، لا يطمع فيه طامع ، ولا هو زعيم سياسي يعنيه استجلاب الرضى أو اجتناب السخط ، وإنما هو وجه الحق الكامن في هذه

---

(١) تاريخ الأستاذ الإمام جـ ١ ص ٩٨٩

الدعوة ، وما فيها من القيم السياسية والإنسانية الجامعة التى لا اختلاف عليها بين عامة المنصفين .

ولما أفضت الأمور إلى الدعوة العربية الجامعة كما سنراه من بعد فى مكانه من هذه السلسلة بإذن الله لم تسلم هى الأخرى من التزييف والاتهام ، وكان الأجدر بهم أن يظاهروها لأنها تقوم على الفكرة القومية التى هى من صلب مبادئهم ، وصميم حضارتهم ، ولكن الاستعمار لا يعنيه من المبادىء إلا ما يتفق مع مصالحه وهذا الولاء القومى الجامع لا يقل خطرا على الاستعمار ، لأن الكتلة العربية هى مادة الحجاب الحاجز ، والسد المنيع الذى يخافونه فى طريقهم إلى الشرق .

ولما كانت الجامعة العربية لا تصح معها دعاوى التعصب الدينى ، فقد عمدوا إلى المستشرقين يفتشون لشعوب الشرق والأمة العربية عن أصولها العنصرية والحضارية القديمة يصرفون إليها ولاءهم ، ويقذفون بهم فى أتون الولاء المزدوج أو التناقض المزعوم بين القومية العربية الحقة ، والشعوبية التاريخية ، وفى ذلك مسخ للفكر القومى الصحيح الذى استقر عليه الفكر الاوروبى نفسه ، وغذى به الفكر السياسى العالمى ، فسمعنا — على أيديهم — عن المصرية أو الفرعونية فى مصر ، والفينيقية فى سوريا ولبنان ، والبابلية الاشورية فى العراق ، والبربرية فى شمال إفريقيا ، وكانت الحفريات التى قام بها الأثريون المستشرقون داخلة فى جملة الأسباب الحافزة بقصد أو بغير قصد إلى هذه السبيل (١) .

أما علماء السياسة وفلاسفتها فقد طلعوا على العالم كله منذ القرن الماضى بنظام الدولة الحديثة (*Modern State*) فى السيادة والولاء .

---

(١) التوجيه السياسى للفكرة العربية لمحمد رفعت ص ٣٤٣

وهذا النظام يقوم على أساس إقليمى خالص (*Territorial*) ، لا يعتد فيه بغير الحدود السياسية حدوداً لسيادة الحاكم وولاء الشعب ، فلا سيادة إلا على هذه الرقعة من الأرض (*Territory*) ، ولا ولاء لغير هذه السيادة أو الحكومة أو السلطان .

فانحصرت الأمة العربية بين هذه الدعاوى والمذاهب التى استهدفت وحدتها ، وبدأت الرابطة الإقليمية تحل محل الروابط الدينية والقومية الجامعة ، فتقطعت أوصال الأمة العربية ، وأصبحت الحدود الإدارية العثمانية القديمة التى لم تكن تحجب غيرها من هذه الولايات الجامعة . حدوداً سياسية قاطعة على أيدى المستعمرين ، فانعزلت مصر عن العراق ، وسوريا عن الأردن ، وتونس عن الجزائر ، وارتبطت كل دولة وهى كارهة بعجلة من عجلات الاستعمار كما هو معروف .

ولقد أغرت هذه النظم السياسية وما وراءها من فلسفات لا يستهان بها كثيرا من المفكرين فى مصر وغيرها من شعوب الأمة العربية ، كما فتنتهم دعاوى المستشرقين فى مجرى الحضارة ، وما ينبغى أن يكون عليه التطور الحديث [1] فباتوا نهباً للشك فى نظمهم الموروثة ، ورأينا « لطفى السيد » على أستاذيته ينكر « الجامعة الإسلامية » ويدعى أنها من صنع الوهم أو الخيال « اخترعها مراسل التايمز فى فيينا » جريا وراء قول المستشرق براون (*Browne*) كما يقول [2] .

أما الجامعة العربية فقد سمعنا من يقول عنها على ذلك العهد إنها « جامعة أصفار » وانعقد مؤتمر الصلح بفرساى بعد الحرب العالمية الأولى ، وخوطب سعد زغلول

---

(1) *Gibb, Mohammadanism*

(٢) قصة حياتى ص ٧

فى تأييد السوريين فقال قولته المشهورة « إن ثورة مصر مصرية وليست ثورة عربية »[1] .

ومؤدى هذه الشواهد وغيرها أن الاستعمار قد خلق فى النفوس بهذه الوسائل العلمية والفكرية كثيرا من الشك ، وأوحى إليهم بالتضارب بين هـذه الولاءات المختلفة ، ونسى أنها ولاءات تفرضهـا الظروف الدينية والتاريخية والقومية والجغرافية . ولا تضارب بينها على الاطلاق .

ولقد جاء « الميثاق » من بعدُ ينعىَ على هذه القيادات الفكرية والثورية عجزها عن « أن تمد بصرها عبر سيناء ... وأن تستشف من خلال التاريخ أنه ليس هناك صدام على الاطلاق بين الوطنية المصرية وبين القوميـة العربية »[2] فالولاءات تتضافر ولا تتنافر ، وتعددها مع الوحدة الجامعة سمة من سمات الرقى الفكرى والتحضر النفسى والاجتماعى .

والحق أن الشعوبية لم تفرخ إلا فى ظل الاستعمار ، وتفاقمت فى أحضان السكينة التى فرضها على شعوب الأمة العربية ، فلما آل أمرها إلى الصراع استعصمت بالوحدة العربية وتنادت بها اليوم كما تنادى بها الناس على ألسنة أدبائهم وشعرائهم قبل أن يغلب الاستعمار على أمره ويسلمهم إلى هـذه الشعوبية البغيضة ، وكانت أولى هذه الصيحات لابرهيم اليازجى عام الفتنة عام ١٨٦٠ :

تنبهوا واستفيقوا أيها العرب

وجاء شوقى وزمرته يترجمون مشاعر الوحدة ومنطق هذا الاتحاد .

---

(١) التوجيه السياسى للفكرة العربية ص ٨١

(٢) الميثاق ص ١٢ ؛

ويجمعنا إذا اختلفت بلاد .·. بيان غير مختلف ونطق

ويقول الرصافى :

ونحن على الحقيقة أهل قربى .·. وإن قضت السياسة بابتعاد
وما صر البعاد إذا تدانت .·. أواصر من لسان واعتقاد

ويقول حافظ :

متى أرى الشرق أدناه وأبعده .·. عن مطمع الغرب فيه غير وسنان
لا فرق ما بين بوذى يعيش به .·. ومسلم ويهـــودى ونصرانى

ويصدر صيدح عن هذا المنطق الأخوى فيقول :

نادوا الأخوة فى العرباء قاطبة .·. واستنجدوا ببنى الأعمام فى العجم

ومثله إلياس فرحات حين يقول :

أشباب يعرب قم فنحن هنـــا .·. نلتى بمـــلء صدورنا المحنـا

وهذه هى صرخة المقاومة فى فلسطين على لسان شاعرها محمود درويش فى :

« يجمع الجرح بلادى العربية »

وتتصل بهذه الشعوبية فى صلبها قضية العامية والفصحى ، أثارها المستشرقون فى مؤتمراتهم ، ورد عليهم دعواهم هذه أئمة التفكير العرب يومئذ ولكنهم مازالوا يبثونها ويفلسفونها فى ربوع الأمة العربية حتى صار لها صدى مسموع انقسم معه الكتاب والأدباء على أنفسهم ، وأصبح للغة قضية وللعامية أنصار وأتباع .

ومجمل الرأى عندهم فى إيثار العامية على الفصحى ، أنهما لغتـان منفصلتان ، وهذا الازدواج معوق للتفوق والتقدم ، لأنه تضييع للجهد الذهنى فى الترجمة

الدائمة من العـــامية إلى الفصحى حتى فى الحديث اليومى ، ولا سبيل إلى النهضة الفكرية إلا بمحو هذا الازدواج اللغوى ، واقتصار الثقافة والتعليم على اللغة العامية المتداولة أو اللغة المنطوقة كما يسميها المهندس الانجليزى المستشرق ولكوكس (*Willcocks*) ، صاحب خزان أسوان .

ولقد أجمع فريق من الباحثين والمستشرقين على أن اللغة العربية لهـــا سحر عجيب ، هو المسئول الأول عن وحدة الأمة العربية ، واتصال أطرافها من الشرق إلى الغرب ومن الأجداد إلى الأحفاد .

ولقد احتفل أبو خلدون ساطع الحصرى بهذه الرابطة اللغوية ، وحشد لهـا من الأدلة والشواهد ما لا يحتاج إلى مزيد ، وحسبنا هنا بروكلمان ، لأنه كان المرجع لكثير من الأوربيين المحدثين فى هذا الأمر ، فلقد آمن أن العرب مدينون بإحساسهم أنهم يؤلفون أمـــة واحدة على الرغم من اختلافاتهم القبلية لموهبتهم الروحية العامة فى الدرجـة الأولى ، أعنى للشعر الذى ترعرع عندهم وازدهر فى رعاية الدين إلى حد ما » [1] .

وعن هذا وكثير غيره صدر المدافعون عن الفصحى منذ أن شرع المستشرقون وأتباعهم من المصريين هذه البدعة ، وكان أمين فكرى نجل عبد الله باشا فكوى وسكرتيره أولَ من فاجأتهما هذه الدعوة فى مؤتمر المستشرقين الثامن فى استكهلم عام ١٨٨٩ م ، فأبطلها لهم بما تؤدى إليه من الفرقة بين شعوب الأمـة العربية ، لبُعد ما بين لهجاتها من الاختلاف ، فضلا عن ضياع القرآن وهو الجامـع بين الكثرة الغالبة لسكان هذه الشعوب [2] .

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ص ٢٩ .

(٢) السفر إلى المؤتمر لأمين فكرى ، وهو ثبت لأعماله هو ووالده فى المؤتمر وما دار فيه على وجه العموم .

ولا تزال هذه القضية بين الأخذ والرد عند جمهور الأدباء اليوم على وجه الخصوص ، وهو أمر يطول شرحه ويخرج بنا استقصاؤه على حدود هذا البحث الذى لا يعنينا منه غير الجانب السياسى أو القومى فى بناء المجتمع ووحدة الأمة العربية .

وقس على هذه القضايا فى دوائر المستشرقين غيرها مما يفُت فى عضد الأمة ، ويزيف حضارتها وتاريخها أو ما شئت من المقومات الجامعة لوحدتها ، فضلا عما يداخلها من الشك فى عقليتها ونظمها وشئون حاضرها وماضيها ، صنيعهم فى قضية الارية والتفريق بينها وبين السامية ، ذلك بأنهم لم يكتفوا بالمغالاة فى جنسهم إزاء الأجناس الحاضرة اليوم ، وإنما عقدوا لأنفسهم تيجان التفوق التاريخى والسيادة الحضارية على مر العصور ، فإذا ما جوبهوا بما صنعته الحضارة العربية فى العصور الوسطى لم ينكروا صنيعها وإنما جردوها من الأصالة أو فضيلة الخلق والابتكار فهى عندهم حضارة سلبية قصاراها الانفعال بالحضارة اليونانية والرومانية ، ونقلها طوال العصر الوسيط إلى أوربا الحديثة أو العقل الآرى الممتاز ، ففضلها فضل التاجر ينقل إليك البضائع ويعجز أن يزيد فى قيمتها أو يغير من خصائصها ، وهذا أدنى أنواع الفضل فى تقويم الحضارات .

والتفريق بين الآرية والسامية على هذا النحو ، يجافى مايقضى به علماء الاجتماع من قانون « الأخذ والعطاء » بين الحضارات والشعوب ، وهو ما أسخط عليهم الكثرة الكاثرة من الأدباء والمفكرين ، يقول الدكتور تمام حسان « غير أن هذه الحقيقة العليا التى لا تقبل الجدل لا ينبغى أن يلتوى بها بعض الكتاب ، وأن يجندوها لصالح ثقافة على حساب أخرى ، على نحو ما تفعل طائفة من المستشرقين ، ولشد ما يحلو لهؤلاء أن يتلمسوا فى الثقافات الشرقية سواء فى ذلك الهندية أم

الفارسية أم العربيـــة أموراً يتكلفون ردها إلى الفكر الإغريقى أو الرومانى ، ويتزيدون فى ذلك حتى يوحوا إلى القارىء بفاعلية الغرب وانفعالية الشرق ، وهم فى سبيل الوصول إلى هـذه الغاية يسوقون من الدعاوى والمغالطات مالا قـدرة للقارىء العادى على رده ، فهو إما أن يقف منهـا موقف المسلّم عن جهـل ، أو موقف المتحمس لما قرأ ، إما بدافع الإعجاب أو بدافع الرغبة فى الظهور بمظهر المطلع المثقف فى غير لغته ، وكلاهما من خطل الرأى بلا شك .

تلك هى بعض القضايا التى راجت فى دوائر الاستشراق ، وكلها شاخص إلى توهين الروابط التاريخية والتشكيك فى فضل الحضارة الجامعة لشعوب هذه الأمة ، وحسب غلاة المستشرقين أن يصرفوا الناس عن الهدف الحق فى الوَحدة التاريخية إلى الجدل العقيم فى هذه القضايا الفرعية ، والجدل مطية الفرقة والخصومة والخلاف كما يقولون ، وكل ذلك للأسف الشديد قد كان .

وخلاصة القول أن هذا العداء ، من طول ما اعتور الوجدان الأوروبى عبر التاريخ ، أصبح طبيعة ثانية تكاد تصرف الكثير من العلمـاء عن وجه الصواب فى قضايا العروبة والإسلام ، ولقد عالج « لوبون » هذه القضية وردها إلى ازدواج الشخصية الأوروبية إزاء العرب والمسلمين ، فالعالم الأوروبى موزع بين موروثات العصور الوسطى من الحقد والعداء ، وبين مطالب العصر الحديث مرن الحيدة العلمية والتحرر الفـكرى فى البحث والنظر ، وهذا ـــ عنده ـــ هو سر التناقض الذى يقع فيه فطاحـل العلماء والمستشرقون ، « فعندما تلتقى الأوهام الموروثة ـ كما يقول ـ مع الثقافة العصرية فى العالم الفاضل ، ولا يدرى على أيهما يعتمد فى وزن الأمور ، يتجلى منه ما يجتمع فى الشخص الواحد من الذاتية القديمة وليدة الماضى ، والذاتية العصرية وليدة الخبرة الشخصية فيصدر عنه من الآراء المتناقضة

ما يستوقف النظر » (١) .

وهذه الرواسب خلّفتها الأحقاب المتطاولة من رهبة الغرب الشرقَ ، وتفوق العرب الحضارى عليه ، فتمكنت من اللاشعور الأوروبى ، وجعلت تعمل عملها الخبيث فى الخفاء ، وتنحرف بالناس عن جادة الصواب من حيث يشعرون ولا يشعرون ، يقول لوبون : « والحق أن أتباع محمد ، ظلوا أشد من عرفته أوروبا من الأعداء إرهاباً عدة قرون ، وأنهم كانوا حين لا يرهبوننا بأسلحتهم ... يذلوننا بسمو حضارتهم الساحق ...

ولقد تراكمت أحكامنا المتحاملة التى تعمل فينا ضد الإسلام والمسلمين على مدى الأجيال ، فتأصلت فى نفوسنا تأصل الحقد الخفى العميق الذى يكنه اليهود للنصارى دائماً .

وإذا أضفنا إلى هذه الأوهام الموروثة وهما آخر يوحى إلى الأجيال المتعاقبة أن العلوم وآداب الماضى كلها من اليونان والرومان كما عودتنا الثقافة المدرسية البغيضة .

إذا أضفنا هذا إلى ذاك ، أدركنا سر الجحود ، وإنكار فضل العرب العظيم على تاريخ الحضارة الأوروبية » (٢) .

لقد قلنا فيما أسلفنا من هذا الفصل إن ارتبـــاط الاستشراق بالتبشير ،

---

(١) حضارة العرب لجوستاف لوبون ، ترجمة زعيتر ص ٥٧٧ .

(2) *Le Bon: Civilisation des Arabes; p. 628.*

وصدورهما فى بعض الأحايين عن المشاعر الصليبية ، وقف بنا موقف الحذر من عامة المستشرقين والاحتياط من أحكامهم ودعاواهم ، وها هو ذا « لوبون » يضيف التعليم ونظمه ، سببا آخر من أسباب التحامل وتأريث العداء ، بما يرعاه فى بعض مناهجه من هذه الأحكام المتحاملة (*Prejugé*) التى تثقل وجدان الأوروبى فتنحرف به عن جادة الحكم الصحيح .

ولا شك أن هذا الموقف النابض بالإجحاف، دون سبب مشروع أو معقول يتعدى بعامة الأوروبيين أمور العلم وقضايا الحضارة ، إلى شئون السياسة والرأى العام العالمى الحديث .

وهذا ما كشف عنه « أرسكين تشايلدرز » وأدار عليه الفصول الأولى من كتابه « الطريق إلى السويس » ، فلقد رد هذه الحرب إلى هذه الصورة الخاطئة التى يملؤ بها العلماء ورجال اللاهوت رؤوس الأوروبيين على وجه العموم ، يقول : « وليس من العسير علينا أن نتتبع هذه الصورة المركبة عبر القرون ابتداء بالهزة المرعبة الأولى التى وقعت فى عهد معركة (تور) ، واستمر عداء اللاهوت والدراسات الدينية للإسلام - على تقدم هذه الدراسات - على حاله إذا لم نقل إنه استمر فى النمو المطرد ، وتنكر العلماء والأدباء الغربيون للإسلام ، فرفض مارتن لوثر مثلا أن يقرأ القرآن ووصمه بمختلف النعوت ، وواصل أدباء الغرب الحملة على الإسلام ومباداته بالعداء مما يظهر بوضوح فى كثير من كتب الأدب والتاريخ .

وقد استمرت هذه الفكرة على قوتها فى القرن التاسع عشر ، وما زالت

تعيش فى عقلنا الباطن حتى اليوم . . . » [1] .

ويستوى فى ذلك العرب والأتراك والأقباط ، فهم طراز واحد لا تباين فيه » [2] .

ولا حيلة لنا مع قوم يبرئون اليهود من دم المسيح ، وهم أعجز من أن يبرئوا أنفسهم من دم العروبة والإسلام .

---

(١) الطريق إلى السويس ص ٣١ .

(٢) المرجع السابق ص ٣٣ .

الفصل الثالث

فى

الصهيونيـــة

أما قضية اليهود فيرتبط اضطهادهم بالغرب وتاريخه ، ولم يرتبط قط بالعرب والعروبة ، أو الإسلام وحضارة المسلمين .

وهذا الارتباط تتعدد صوره وأشكاله بتعدد صور الاحداث ، أو الوقائع المتداخلة الأسباب والتراكيب ، إلا أن الصراع الكامن وراء كل هـذه الظواهر صراع فكرى أو حضارى فى المقام الأول على وجه اليقين ، لا تظهر خوافيه فى الفكر السياسى أو الاقتصادىّ ، ظهورَها فى التفكير الأدبىّ والتاريخ الدينىّ على وجـه الخصوص ، لأن الدين والأدب كليهما قِوام الشخصية الحضارية ، والمسئول الأول عن الطابع العقلى أو الكيان الفكرى فى الأمم والأفراد على السواء ، وإذا كان الدين فى المجتمع الأوروبى الحديث قد نزل إلى المرتبة الثانوية فى أعقاب النزعة العلمانية (*Secularism*) فإننـا لا نعدم الشاهـد على مشاعر النفور والازدراء إزاء الجوانب الغريبة فى الشخصية اليهودية ، فى مسرحيات شكسبير(*Shakespeare*)وقصص دكنز (*Dickens*) وثاكرى(*Thakeray* ، ولا تزال هذه المشاعر تعمل عملها عند عامة الناس ، تنبىء عنها أحاديثهم اليومية ، وشتائمهم المعهودة وتشبيهاتهم الدائرة على عامة ألسنتهم ، وحسبنا فى هـذا الصدد اشتقاقهم فعلا من كلة اليهودى (*to jew*) ويعنُون به الخداعِ والختل وخلقِ المساومة والاحتيال .

وأنت لا تكاد تمحص ظاهرة من ظواهر هذا الصراع ، إلا ويطل الخلاف الفكرى برأسه من ركام العلل والأسباب، « فشعور الغربيين إزاء اليهود كشعورهم إزاء الزنوج ، كلاهما يمتزج بالإحساس الداخلى أو الوعى بالفوارق الفزيولوجية بين الأغلبية الساحقة والقلة المضطهدة .

إلا أن هناك شاهداً لا شاهد وراءه ، على أن هـذا النفور فى كلتا الحالتين ليس رداً نفسياً تلقائياً عندما يقع البصر على الملامح الفزيولوجية ، فالمشاعر التى تثور فى نفس الغربى عند رؤية الأنف المعقوف فى وجه اليهودى لا تثور لرؤيته فى وجه الرجل التركى .

وهـــذا دليل على أن نفور الغربى من اليهودى ليس من جرّاء الفوارق الفزيولوجية وإنما هو من جراء الفوارق الاجتماعية والثقافية التى أصبحت هـذه الفوارق الفزيولوجية رمزاً لها ودليلا عليها »[1] .

وتاريخ هذه القضية أو هذا الصراع يرجع إلى الإمبراطورية الرومانية منذ خراب الهيكل الثانى بعيد الميلاد على عهد تيتوس (*Titus*) ثم هادريان (*Hadrian*) ،[2] فلقد هاموا على وجوههم فى مختلف أنحاء الشرق الأدنى أو العـــالم القديم فى بلاد العرب والفرس وما بين النهرين ، تحدوهم القرابة السامية وذكرى قورش الفارسى (*Cyrus*) ، مخلصهم الأول من الأسر البابلى على عهد بختنصر (*Nebuchadnezzar*) ، إلا أن فريقـــا منهم ظل على استمساكه بالإمبراطورية الرومانية فنزح إلى غربها وشمالها ، وهى ـ بعد ـ دولة وثنية ،

---

1) *Toynbee, A. : A study of Hist., 8 p. 272.*)

2) *Bentwich, N. : Israel ... p. 30.*

فكانوا ينافسون المسيحية الناشئة بدينهم ، حتى إذا غلبت المسيحية على أمرها فى الدولة على أيد قسطنطين (*Constantine*) وخلفائه ، أصبحت لهم قضية منذ أن أصبحوا قلة هزيلة فى هذا البحر المتلاطم من المسيحيين .

وتجىء العصور الوسطى بظلامها المعهود ، وعصبيتها الطـاغية ، فلا يجدون فيها غير « اللعنة الأبدية » وصنوف الأذى والاضطهاد .

ومهما قيل فى هذا الأمر فإن الوحشية البالغة لا ينهض بهـا وصف عاجل ، من بشاعة ما وقع بهم من الخسف والطغيان ، وحسبنا شاهدان : فظاظة القوط الغربيين (*Visigoths*) وبربريتهم إزاء اليهود فى مطلع هذه العصور الوسطى ، ثم محاكم التفتيش (*Inquisition*) فى نهايتها ، وحدّث عما بينهما من وقائـع الظلم ولا حرج .

وقد اعتاد الصهاينة أن يفصّلوا القول فى هـذه الشنائع والبشائع ، يعطفون بها الناس على قضيتهم ، ويستثيرون فيهم النخوة ومشاعر الحدب والإشفاق ، وقد أجدى هذا المنهج جداءه بما اتصل فى العصر الحديث من وقائع هـذا الاضطهاد على أيدى الروسيا القيصرية وأيدى هذه الدول الاوربية التى انتهى بها المطاف إلى النازية الهتلرية .

فهب إليهم الأنصار والأتباع يتصدرهم اللورد شافتسبرى(*Chaftesbury*) فى القرن الماضى بكل ما أوتى من خلق التحرر ونزعاته ، وقد أفضى عطفهم هـذا بين ساسة هـذا القرن إلى الوعد المشئوم الذى يقول فيـه بلفور (*Balfour*) على رؤوس الأشهاد فى مجلس اللوردات : « إن العالم المسيحىّ حافظ لمـا أسداه اليهود لديانات العالم الكبرى ، وإننا نتشوف إلى أن نمنحهم الفرصة فى أن ينموا مواهبهم فى طمأنينة وتحت الحـكم البريطانى ، فطالمـا اضطروا إلى أن يسخروا

مواهبهم للبلاد التى لا تعرف لغتهم ولا ينتمون إلى بنى جلدتها » [1] .

ولم يجد هؤلاء الناس غرابة فى هذا الوعد وإنما وجدوا فيه إحقاقاً للحق وانصافا للمظلوم فى زعمهم ، فهو ينبنى عند « سمطس » (*Smuts*) على « العدل التاريخى » لانه يصحح ، فى زعمه ـ خطأ تاريخياً طال عليه المدى » [2] .

أما الأدباء فقد كتبوا الشعر وألفوا القصص والروايات ، يندبون فيها حظ اليهود ، ويثورون بما أصابهم من الظلم واحتملوه من المكروه ، وكلهم شاخص إلى « أرض الميعاد » (*Promised Land*) ، يرى فيها حقهم الطبيعى ، أو وطنهم القومى الذى تنتهى إليه آمالهم فى الخلاص من مكاره « التشتت » (*Diaspora*) وقسوة « الجوييم » (*Centiles*) .

ويحاكم الفريد دريفوس (*Dreyfus*) ، ذلك الضابط اليهودى البرىء ، فى فرنسا مهد الحرية وقلب العالم الحديث ، فتصبح إدانته ـ ظلماً ـ قضية العصر ، لأنها قضية التحرر وأزمة الحضارة فى العصر الحديث ، ويهب زولا (*Zola*) بمقاله المعروف بأنى أتهم (*J'accuse*) فيدين الحضارة والضمير الإنسانى ، ويؤجج مشاعر العطف والحدب على عامة اليهود ، فكان فاتحة الحركة الصهيونية فى هذا العصر على يدى هرتزل (*Herzl*) ، والسبب الأول فى كتابه عن « الدولة اليهودية » أو دولة اليهود » (*Der Judenstaat*) الذى اشتمل على الأهداف القومية والسياسية لهذه الحركة العنصرية [3] .

---

1) *Bentwich N : Israel .. p. 37.*

(٢) المرجع السابق .

(٣) التآمر الصهيوني ضد الأمة العربية للدكتور حسن صبحي ص ٢٣ .

ولقد أورد لنا إسرائيل كوهين (*Cohen*) نماذج مختصرة إلا أنها منبئة عن مشاعر العطف والحدب بين من أسلفنا من الأدباء والكتاب ، يقول اللورد الشاعر بايرون : « إن للحمامة البيضاء عشا صغيراً ، وللثعلب وكراً ، ولكل إنسان وطناً ، إلا اليهود فلهم القبور » .

أما دزرائيلي فيتغنى بأرض الميعاد ، ويشبب ببيت المقدس تشبيب المستهام فيقول : « تسأليننى عن أعز أمنية عندى وجوابى أرض الميعاد ، وتسأليننى عما يداعب أحلامى فأقول : أورشليم ، وتسأليننى عما يستهوى فؤادى فأقول : إنه الكنيس ... » [1] .

وسواء حملنا دزرائيلي على المسيحيين أم على اليهود فإن الأمر واحد ، لأن المشاعر فى جملتها سواء ، لا نريد منها غير شاهد الاضطهاد وآمال التشرد التاريخى التى اعتملت بها نفوسهم من لدن السبى الأول البابلى إلى يوم الناس هذا .

وقد خلد أحد المزامير ذكرى هذا الحنين المتصل بقوله :

على أنهار بابل جلسنا وبكينا على ذكرى صهيون
وعلى أغصان الصفصاف علقنا قيثاراتنا
لأن الذين سبونا طلبوا إلينا غناء
والذين عذبونا أرادوا منا طرباً
ونادونا: هلا أنشدتمونا نشيداً من أناشيد صهيون؟
ولكن كيف نغنى غناء الرب فى بلد غريب ؟ ! !
لئن نسيتك يا أورشليم فيميني براء منى
وليلتصق لسانى بحلقى إن لم أذكرك يا أورشليم
وإن لم أضعك فوق كل أفراحى [2]

---

(١) هذه هى الصهيونية ص ٢٩ وما بعدها .
(٢) المزمور ١٣٧ .

وما بين هذا وذاك كانت مشاعرهم على طول هـذا الزمن تفيض بالتشريد وآمال العودة على نحو ما جاء فى تحليل هـذه « الشخصية الإسرائيلية » فى ضوء آدابها وكتبها المقدسة على وجه الخصوص [١] .

وهم على حق فى آلامهم ومصائبهم ، إلا أنه الحق الذى يراد به الباطل كما قال سيدنا على ، لأن المصائب أحرى أن تنـاط بأسبابها ، وإذا عرف السبب بطل العجب كما يقولون ، ولـكنها دموع التماسيح يريقونها بين يدى دعواهم فى القديم والحديث ، وهم أعرف الناس بوجه الخلل فيها ، فهم يعلمون أن ما أصابهم فى هذه العصور التاريخية لم يكونوا فيه بدعا بين شعوب العالم القديم،ولا فى شعوب العصور الوسطى ، وإنما كانوا فيه كغيرهم من شعوب الأمم المسيحية والإسلام على السواء ، لأن الاضطهاد كان ظاهرة مشروعة من ظواهر التاريخ ، لانعدمها فى العالم القديم ، ولا نعدم بشاعتها على عهد التوسع الصليبى على وجه الخصوص ، يقول لوبون : « ولم يكتف الفرسان الصليبيون الأتقيـاء بذلك ، فعقدوا مؤتمراً أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى... فأفنوهم عن بكرة أبيهم فى ثمانيـــة أيام، لم يستثنُوا منهم شيخا ولا طفلا ولا امرأة »[٢] .

وإذا كان التاريخ يحدث بما هو أبشع من ذلك وأشنع ، فاننا لا نعدم تبرير ذلك كله فى الإيمـان البدائى الساذج الذى يبررون هم به فظائع قادتهم ، وشنائع سلوكهم ، ووحشية التعاليم التلمودية التى لا رحمة فيها على حد تعبير جوستاف

---

(١) الشخصية الاسرائيلية للدكتور عبده على الراجحى .

(٢) حضارة العرب ص ٣٢٧ .

لوبون (١) .

ومن التمويه وخلق الختل ، أن يقتطع الصهاينة ظاهرة الاضطهاد من مكانها التاريخي وظروفها الفكرية والاجتماعية ، وأن يختصوا بها أنفسهم دون سواهم من أهل العصر والتاريخ ، وهم يعلمون أن النِّحَل المسيحية ذاتها ، كانت أتعس منهم وأبأس ، فالكاثَرية (*Catharism*) والولدانية (*Woldansis*) فى عامة أوروبا ، والويكليفية (*John Wyclif*) فى انجلترا . والهسية (*John Huss*) فى بوهيميا وشرق أوروبا ، هؤلاء وغيرهم من أصول النزعة البروتستانتية (*Protestantism*) ظلت طوال العصور الصليبية ومابعدها هرطقات أوزندقات فى عرف الكثلكة ، يجوز فى أصحابها أضعاف أضعاف مايجوز فى المسلمين واليهود من العذاب (٢) .

كان الاضطهاد - إذن - من سىء العصر والظروف التاريخية أو هو فى الأصح من سىء النظم والتفكير .

و « توينبى » على رأس أولئك الذين وضعوا هذه القضية وضعها الصحيح ، فرد عامة الاضطهاد إلى اجتماع السلطة الزمنية والروحية على صعيد واحد من الاتحاد والاتفاق (٣) .

والصهاينة بعد ذلك يريدون أن يدينو البشرية بهذا الاضطهاد ، ويتقاضوها الحساب على جرم لايد لأحد فيه ، ولا كانوا هم وحدهم ضحاياه ، ولكنها الانتهازية

---

(١) اليهود فى تاريخ الحضارة الأولى ص ٤٧ .

2) *Painter, S.: A Hist. of Middle Ages.*

3) *Toynbee; A study of Hist., vol. 8, p. 279.*

أو خلق المتاجرة ، لا تكاد تترك فرصة إلا وتقتنصها ، وأسوأ ما يكون هذا الخلق إذا اتخذ المصائب مادة المضاربة ، لأن ذلك من خلق التسول ولا فرق ، كلاهما يخدع الناس بمصائبه ويتخذها ذريعة للكسب والتمويه .

وهنـــاك فريق من الساسة والأدباء من الأوروبيين وغير الأوروبيين ، لا يزالون يستجيبون لهـذه الدموع ، وينتصرون لقضاياها بدعوى العطف والإنسانية ، وما هم من ذلك فى شىء عند التبصر والروية، لأنهم يقدمون المشاعر المهتاجة على حكم المنطق والعقل ، والإنسانية الصحيحة تضع العقول فوق المشاعر الملتهبة والوجدان المستثار .

على أن هذا العطف الأوروبى ، لم يكن فى جملته صادقاً كل الصدق لأننا سنرى برونو باور (*Bruno Bauer*) فى أعقاب الثورة الفرنسية ذاتها . يثور بمبادىء المساواة التى استأثر بها الأوروبيون من دون اليهود فى واقع التطبيق أو العرف وقرارة الوجدان (١) ، ونحن نعلم أن فريقا من الفلاسفة والكتاب وعلى رأسهم سارتر (*Sartre*) لا يزالون ينحون باللائمة على المجتمع الأوروبى لأنه فى زعمهم هو المسئول عن القضية اليهودية لموقف النبذ والازدراء الذى يتخذونه إزاء اليهود كما سيجىء .

ونعود إلى العرب فنرى وجها آخر للقضية ، أولها الإعجاب العربى ، ووسطها الإنصاف الإسلامى ، وآخرها هذا الجحود اليهودى وما يحيق بفلسطين من العسف والظلم ، وهم أبناء المعجبين من العرب ، والمنصفين فى الإسلام ، وقد صدق الحق تبارك وتعالى : « ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم » .

---

(١) راجع ذلك فى مناقشة ماركس له فى كتاب العائلة المقدسة أو نقد النقد
Holy Family or the critique of critical critipue, p. 155

أما الإعجاب ، فلأنهم كانوا أهل علم وكتاب ، والعرب أهل أميّة وأوثان ، فكانوا يجلونهم ويكبرون علمهم، وقد أجمعت كتب التاريخ على أن « خزرج المدينة» كانوا أسرع إلى محمد ليعتزوا به وبدينه من جرّاء ما هم فيه من فقر روحى ، يقول ابن اسحاق . « إن يهود كانوا أهل كتاب وعلم ، وكان العرب أهل شرك وأصحاب أوثان ، ... فما كلّم رسول الله أولئك النفر ودعاهم إلى الله حتى قالوا بعضهم لبعض : ياقوم تعلمون والله إنه للنبي الذى توعدكم به اليهود ، فلا يسبقُنكم إليه » (١) .

وهذه هى مزية تواترت فيهم على ذلك العهد ، لم ينكرها عليهم عربى ، فهم أهل الرأى والمشورة ، أو الحجة وأهل الثقة فى شئون العلم ومطالب المعرفة ، يقول ابن اسحق « فقالت قريش ، يامعشر يهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفدينُنا خير أم دينه ؟ قالوا . بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ... فلما قالوا ذلك لقريش سرهم ونشطوا لما دعوْهم إليه من حرب الرسول » (٢) .

ولما جاء الإسلام لم ينكروا عليهم علمهم ولا فضلهم ، وإنما حملوهم وزر النكوص عن الإيمان بما يعلمون به ، يقول الشاعر :

وقد أوتوا — معا — فهماً وعلماً ... وجاءهم من الله النـــذير

ويرد عليه سمال اليهودى ، فيتخذ من هذا « الفهم والعلم» حجة الرفض وإنكار الرسالة والرسول ، فيقول :

---

(١) الروض الأنف ج ١ ص ٢٧٦ .

(٢) المرجع السابق ج ٢ ص ١٨٧ .

أرى الأحبار تنكره جميعاً ... وكلهم له علم خبير
وكانوا الدارسين لكل علم ... به التوراةُ تنطق والزّبور(١)

ويدخل فى جملة الإعجاب ودواعى الإكبار، أنهم كانوا أهل زراعة وصناعة، وكان العرب أهل رعى وارتحال ، وهذه خلة يعلمونها من أنفسهم ، ومزية لم يشاددهم فيها عربى ، ولقد أجدت جدواها فى فتح خيبر ، يوم غلبهم المسلمون على أرضها وبساتينها ، فقالوا للرسول « نحن أعلم بها منكم وأعمر لها » ، فصالحهم على النصف ، ولم يجادلهم فيما قالوا (٢) .

وكانوا فوق هذا وذاك أهل حضارة ، نزحوا بها من فلسطين الرومانية على عهد « تيتوس » فيما يقول المؤرخون (٣) ، فعاشوا فى وادى القرى وخيبر وتيماء وفدك والمدينة ، على سُنة الرومان فى السيادة وابتناء الحصون والقلاع ، والتاريخ العربى حافل بأسماء هذه الحصون وألقابها ، وأشهرها « الأبلق الفرد » حصن السموأل بن عاديا ، سيد تيماء ، وشاعر العرب ، ولا يزال شعره فى جملة ما يتأدب به العرب والمسلمون (٤) ، وكان هذا الحصن مضرب المثل فى العز والمنعة فكان يقال : « عز الأبلق » كما كان يقال « أعز من كليب وائل » سواء بسواء .

ولقد أحصت لنا كتب التاريخ من حصونهم السُّلالم والوطيح والناعم والنزار والقَموص وما إليها (٥) .

---

(١) المرجع السابق ص ١٨٠ .
(٢) الطبرى ج ٣ ص ١٥ .
(٣) تاريخ اليهود فى بلاد العرب لولفنسون والروض والأنف للسهيلى .
(٤) راجع ديوان الحماسة .
(٥) الطبرى ج ٣ ص ٩ وتاريخ العرب قبل الاسلام لجواد على ص ١٥٥ ج ٢ .

ويجىء الإسلام فيكشف عن وَحدة الأبوة فى النسب والدين بين الفريقين فيلتقى كلاهما فى إبراهيم عليه السلام ، أما النسب فنى إسماعيل ويعقوب ، وكلاهما من ولد إبراهيم ، فإسماعيل أبو العرب ويعقوب أبو اليهود ، « وقال الله ... لا يُدعى اسمك فيما بعد يعقوب بل يكون اسمك إسرائيل » (١) فكان إسرائيل، وكان ولده هؤلاء الإسرائيليون .

إلا أن اليهود لا يقيمون وزناً لهـذه القرابة ، لأن العرب ـ عندهم ـ أولاد الأمة ، يريدون بها « هاجر » ، ثم ـ بعُد ـ مصرية ، أمّا هم فأولاد « سارة » العبرانية دماً ونسباً ، فهم أصل من العرب فى سلالة إبراهيم وأحق به منهم ، جاء فى التوراة : « ورأت سارة ابن َهاجر المصرية التى ولدته لإبراهيم يمزح ، فقالت لإبراهيم اطرد هذه الجارية وابنها ، لأن ابن هذه الجارية لا يرث مـــع ابنى إسحق » (٢) .

والقرآن كله ـ بعد ذلك ـ يشيع الإكبار والإجلال فى وجدان المسلم ، إزاء هذه الأبوة والنبوة من لدن إبراهيم إلى عيسى عليه السلام ، فكلهم له فضله ورتبته وحقه فى التقديس « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينـا ، وما أنزل إلى ابراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط، وما أوتى موسىوعيسىوما أوتى النبيّون ، لا نفرق بين أحد منهم » (٣) .

ولكن اليهود اعتدوا ذلك تملقـــا ، يريد الرسول أن يستنصرهم به على

---

(١) سفر التكوين ـ اصحاح ٣٥ .

(٢) سفر التكوين ، الاصحاح ٢١ آية ٩ .

(٣) البقرة آية ١٣٦ .

العرب ، فاختلاق هذه الأبوة أو القرابة من باب الكياسة أو عمل الحيلة والسياسة كما نراه فى أقوال فريق من المستشرقين [١] .

ونستطيع أن نجاوز كل ذلك لنصل إلى حقوق المعاهدين من أهل الذمة أو الكتاب على العموم ، فالإسلام قد شرع لهم من الحقوق ما جعلهم « دولة داخل الدولة » كما يقولون ، لهم نظمهم ومجتمعاتهم وقضاتهم وقوانينهم ومعابدهم ، قال ابن إسحق : « وكتب رسول الله صلى الله عليه وسلم كتابا بين المهاجرين والأنصار وادَع فيه يهود ، وعاهدهم وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط عليهم واشترط لهم ، وجعل لهم نصيبا من الغنم إذا انفقوا فى الحرب » [٢] .

وهذا الموقف لم يختلف بعد النصر والغلبة ، لأن الأمر أمر حق ، لا منةَ فيه ولا تفضل « فلهم مالنا وعليهم ما علينا » ، كتب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى معاذ بن جبل يوم بعثه عاملا على اليمن « ألا يُفتن يهودى عن يهوديته » [٣]

ونحن أعلم الناس بأن القرآن لعنهم على لسان داود وعيسى بن مريم ، وأعلم الناس بما فضلهم به على العالمين ، وهو فى جميع حاليه لم يصدر عن غير الحق ، فالفضل واللعنة كلاهما منوط بأسبابه ومسبباته ، فالقول يصلح فيهم بصلاح العمل ، ويسوء « بما اعتدوا وكانوا يفسدون » .

والناس فى هذا شرع واحد ، لا يختلف اليهود فيه عن النصارى أو المسلمين ، رُوى أن المسلمين وأهل الكتاب تفاخروا فيما بينهم ، وادعى كل منهم الفضل لبنى دينه ، فنزل القرآن يزيف لهم أمانيهم وادعاءاتهم ، ويشرع لهم « العمل » معياراً للتفضيل والتمييز .

---

(١) راجع مادة ابراهيم فى دائرة المعارف الاسلامية على سبيل المثال، وراجع كتاب:
Mur, Sirw : She Covan

(٢) الروض الأنف ج ٢ ص ١٦ من السيرة .

(٣) فتوح البلدان ص ٨٥ .

« ليس بأمانيّكم ولا أمانيّ أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يُجز به ، ولا يجدْ له من دون الله ولياً ولا نصيرا ، ومن يعملْ من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا (١) .

ذلك هو المدخل الحق لآى القرآن فى المدح والتفضيل أو الذم والتقريع ، فالعمل الصالح وشرط الايمان هما المعيار الذى لا معيار وراءه ، (٢) يقول الله تبارك وتعالى :

« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم بذنوبكم ، بل أنتم بشر ممن خلق ، يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء » (٣) .

وذلك هو حكم العقل والفطرة السليمة ، لا يستأثر أحد بوجه الله ، تعالى عن ذلك علواً كبيرا ، وتجىء هذه الآية لتدحض غرور الامتياز ، وخرافة الشعب المختار ، أو الاتكال على شفاعة الشفعاء ، جاء على لسان يوحنا المعمدان : « فاصنعوا ثمارا تليق بالتوبة ... ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم ... إن لنا إبراهيم أبا — لأنى أقول لكم : إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم » (٤) .

فالدين ليس رخصةً تسقط العمل والاجتهاد من حساب الجنة والنار ، وإنما كل شىء بحقه من الصلاح والعصيان ، واليهود كغيرهم ممن خلق ،

---

(١) النساء ١٢٢ ، ١٢٣

(٢) اليهود فى القران لطبارة .

(٣) المائدة ١٨ .

(٤) انجيل متى — الاصحاح الثالث .

يمدحون بما صبروا وأصلحوا : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبرو » (١) .

فإذا أجرموا لعنوا بجرمهم ، وأخذوا بعصيانهم وفسادهم ، « لُعن الذين كفروا من بنى إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهَون عن منكر فعلوه » (٢) .

ونجيء إلى عهد الاسلام ، وحكم المسلمين ، فنرى الناس على بينة لا لبس فيها من أمر المعاهدين من عامة أهل الكتاب .

« لا ينهاكم الله عن الذين يقاتلوكم فى الدين ، ولم يخرجوكم من دياركم - أن تَبروهم وتُقسطوا إليهم ، إن الله يحب المقسطين ، إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم فى الدين وأخرجوكم من دياركم ، وظاهروا على إخراجكم - أن تولوهم ، ومن يتولهم فأولئك هم الظالمون » (٣) .

ذلك حكم الله ، وموقف الاسلام ، انطبع به وجدان المسلم وانطبع به تاريخ المسلمين ، فاليهود وعامة أهل الكتاب حقهم فى البر والقسط مشروع ومعلوم ، لا يسقط عنهم بالعداوة القلبية ومشاعر البغض ، ما لم تصل بهم إلى التآمر وحد التهجم والقتال .

وحسب العقيدة الصالحة ، أن تنتصف لغيرها إنتصاف الحق المشروع لا انتصاف التفضيل والامتنان .

وحسب الأديان الأخرى من الإسلام ، أن يجدوا نصابا يحتكمون

(١) الاعراف ١٣٧ .

(٢) المائدة ٧٨ – ٧٩ .

(٣) الممتحنة ٧ ، ٨ .

إليه ، وحقا معلوما يتقاضونه مهما استبدت الأهواء واستحكم التعصب فى النفوس .

وحسب البشرية أن تقوم فيها أخوّة فى شئون المجتمع ومطالب الحياة عندما تمتنع أخوة الدين ووحدة المذاهب والمعتقدات .

ولقد لاحظ « توينبى » هذ الحقوق المشروعة أو القانونية (*de jure*) كما يسميها ، إلا أنه لم يلحظ ما وراءها مما قدمناه من البر ومشاعر القسط فى أهل الكتاب (١) .

وهذه المشاعر لا يحدها حد فى واقع العمل والتطبيق (*de facto*) ، لأنها هى السر الكامن وراء ما فى التاريخ الإسلامى من تسامح تجاوز بأهل الكتاب « حدود الأمن » و « حق الطمأنينة » ، إلى الوظائف العامة ومراتب الجاه والسلطان .

ولقد راعت هذه الأوضاع عامة المستشرقين ، فأكبروا هذا التسامح العظيم ، صنيع جوستاف لوبون وريسلر ومن إليهما من المنصفين ، يقول لوبون : « فالعرب هم الذين علموا الشعوب ، وإن شئت فقل حاولوا أن يعلموها التسامح الذى هو أثمن صفات الإنسان ... واستعرب كثير من النصارى فغدوا هم واليهود مساوين للمسلمين ، قادرين على تقلد مناصب الدولة ، وكانت إسبانيا العربية بلدَ أوروبا الوحيد الذى تمتع اليهود بحماية الدولة ورعايتها ، فصار عددهم فيه كثيراً جداً » (٢) .

I) *Toynbnee, A : Astudy of History, vol 8, p. 282.*

(١) حضارة العرب ص ٢٧٦ ـ ٢٧٧ .

وأما (ريسلر) فمن كثرة ما بلغه أهل الكتاب ، واليهود خاصة ، من المناصب فى مصر الإسلامية ، أورد من أشعار العامة ما كانوا يلمزون به الحكام من باب التهكم ، واستئثار اليهود بشئون الملك والإدارة ، يقول : (وفى منتصف القرن الحادى عشر تسلل اليهود إلى أعلى المناصب على الرغم من بعض نصوص القرن المضادة تجاههم ، وانتهوا باستبعاد الذميين الآخرين ، وقد شغل أحد اليهود المناصب الوزارية فى القاهرة القديمة ، وأدار آخران سعد والتسترى شئون الامبراطورية ، ولحق بهما فيما بعد الهجاء والتهكم بكل حماسة ، بعد أن تجاوزوا الحدود ، ومن ذلك قول الشاعر :

العز فيهم والمال عندهم ... ومنهم المستشار والملكُ
يا أهل مصر إنى نصحت لكم ... تهودوا ، فقد تهوّد الفلك

ولعل (ريسلر) كان يقصد بهذا اليهودى (يعقوب ابن كلس) وزير الحاكم بأمر الله الفاطمى ، لأنه هو (وابن النغرالى) كان كلاهما ـ وهو يهودى ـ قطبَ الرحى فى دولته ، ذاك فى الشرق الإسلامى ، وابن النغرالى فى الأندلس من بلاد الغرب الإسلامى ، وليس وراء ذلك تسامح عرف فى التاريخ .

ولقد شهد اليهود الصهاينة أنفسهم بذلك فى هذا العصر الحديث ، وكان بوسعهم أن يصمتوا عنه كما هو شأنهم فى كتم فضائل الأمم والشعوب ، إلا أنهم أرادوا أن يلمزوا الأوروبيين ، ويعرّضوا بتاريخهم ، فأعطونا الشاهد الذى ندينهم به ، لأنهم لو كانوا يؤمنون حقا بفضل العرب عليهم لما صنعوا معهم ما يصنعون ، يقول نورمان بنتوتش (*Bentwich*) أستاذ العلاقات العامة فى

---

(١) الحضارة العربية ص ٧٩ .

الجامعة العبرية : « ولمـــا تضعضعت قوة المسلمين فى أسبانيا ، وقويت شوكة المسيحيين ، أطاحوا بحرية اليهود الدينية ، وبأمنهم فى هذا البلد الذى كان مركز اليهود الثقافى على ذلك العهد ، ذلك بأن الحكام الرومان الكاثوليك اعتبروا اليهود كفاراً وخطراً على شخصية الدولة المسيحة ، وعام ١٤٩٢ أى بعد غلبة المسيحيين على (قرطبة) بعام واحد ليس غير ، طُرد نصف مليون يهودى ، هم كل الجالية اليهودية التى أنتجت ثقافة يهودية ملحوظة طوال الأربعة قرون » .

هذه هى حال اليهود فى العصور الوسطى بين تسامح العرب والمسلمين واضطهاد الغرب ونظمه ومعتقداته ، ويجىء العصر الحديث وقد وقرت فى نفوسهم مشاعر الخوف والاضطراب ، فهم فى فزع دائم ، وغربة متصلة ، لا يكاد يطمئن بهم المقام حتى تزعجهم عنه المزعجات وظروف العداء الأوروبى الحديث .

وهم يؤمنون اليوم أن هذا الواقع التاريخى المهين ، قد جعل فيهم العزلة أو ظاهرة « الجيتو » (*Ghetto*) ظاهرة نفسية واجتماعية لا يلامون عليها ، وإنما يلام عليها الغرب ، لأن المجتمع الأوروبى بمـــا فيه من مشاعر البغض والحقد والاحتكار ، قد ضرب عليهم بسياج من العزلة والاغتراب النفسى والاجتماعى على السواء .

ويقف سارتر (*Sartre*) معهم فى هذه الحجة ، لأن ذلك - عنده - رد فعل طبيعى لموقف النبذ والعداء ، ولا يكون رد الفعل غير هذه العزلة التى أسلمتهم إلى خصائص (الجيتو) المادية والمعنوية ، وذلك هو صلب القضية اليهودية وجوهرها (١) .

---

(١) إسرائيليات لأحمد بهاء الدين .

ولكن هذا العصر الحديث ، ما لبث أن اجتاحه النظم الليبرالية أو النزعات التحررية ، فودع الناس بها مثالب العصور الوسطى بكل ما فيهـــا من طبقية وسياسية واجتماعية ودينية ، وتنـادى الفلاسفة والمصلحون بالحرية والإخاء والمساواة ، وأصبحت هذه المبادىء الثورية الفرنسية إنجيل العصر وقضية الإنسان الحديث ، يلتقى عليها الأدباء والفلاسفة ، فقد أجهدوا أنفسهم هم وغيرُهم من علماء السياسة فى فلسفة التحرر واستخراج أصوله وأسانيده ، وقد انتهى بهم البحث منذ القرن الماضى إلى فـكرة « العقد الاجتماعى » (*contrat Social*) أو « الحق الطبيعى » (*droit nautrel*) سنداً للتحرر والخلاص .

وفلسفة « الحقوق الطبيعية » تقضى بهذه الحقوق للانسان من حيث هو إنسان فتنفى عنه بذلك كل اعتبار من اعتبارات العصور الوسطى فى القداسة والنبـالة أو شرف المحتد وامتياز العقيدة أو المذهب على العموم .

فانفتح باب المساواه ، وتربعت مبادئهـا على عرش القيم ، وأصبحت حقا أصيلا من حقوق الإنسان تكفلت به المواثيق والدساتير ، وأصبح المجتمع الحديث مجتمعَ الأقران أو الأخوة والنظراء ، لا فرق بين النـاس فيه مهما اختلفت بهم الأجنـاس والأديان والألوان والثروة أو الجاه ، فالـكل سواسية أو « سواء أمام القانون » .

وكان الزعم أن هذه المساواة القانونية ، وحقوق التحرر السياسى كفيلة بهدم حائط « الجيتو » والقضاء على هـذه العزلة النفسية والاجتماعيـة ، لأن المساواة القائمة تقضى على حجتهم فى موقف النبذ والعداء ، وآمن بذلك « موسى مندلسون » أحد كبار فلاسفتهم فى مطلع هـــذا العصر ، وتنـادى هو وأتباعه بالاندماج فى المجتمعات المسيحية ، والأخذ بعاداتهم وثقافتهم لأن ذلك هو طريق

الخلاص ، [١] إلا أن هذه المبادىء قد اصطدمت بالوجدان الديني وموروثات العرف والثقافة عند الأوروبيون واليهود على السواء .

فالأوروبى - مثلا - لم ينزل عن « الأحد » إلى « السبت » أو غير « السبت » عطلةً للدولة وراحةَ الأسبوع ، واليهودىّ هو الآخر لم ينزل عن ولائه النفسى للسبت وما يتصل به من المشاعر والوجدان ، فهو فى حرب خفية مع الدولة ، يعارض اعتقادها باعتقاده ، وقوميتها السياسية بقوميته الدينية ، ويعارض قوانينها الوضعية وتعاليمها العلمانية بقوانينة الخاصة وتعاليمه التامودية .

فمضت هذه الشعارات أو المبادىء العظيمة فى أعقاب الثورة الفرنسية غير محسوس بها فى عامة الوجدان اليهودى على السواء ، يستمسك بها الثائرون ويتبناها المصلحون ، أما الدولة - عندهم - فاعجز من أن تمضى فى تطبيقها إلى آخر الشوط.

وهذا العجز هو لب المشكلة عند باور (*Bauer*) ، لأن التحرر السياسى لا يستتم أمده فى العصر الحديث إلا إذا نزعت البشرية عنها ثوب الدين كما ينزع الثعبان جلده ، كلما جاز مرحلة من مراحل العمر والتطور ، وها هى البشرية قد جاوزت المرحلة الكهنوتية إلى المرحلة العلمانية التى لا تثبت معها السلطة السياسية للدين على النقد والتمحيص ، ومتى بلغت الدولة الحديثة هذه الغاية كفّت - من ناحية العمل والتطبيق - أن تكون دولة مسيحية . وكف معها اليهودى أن يكون مواطنا يهوديا ، وعندها يلتقى اليهودىّ والمسيحىّ فى أحضان الدولة على صعيد واحد من الإخاء الإنسانى ، متحرراً كلاهما من وهم الإمتياز الدينى وعقده وعصبياته .

---

(١) هذه هى الصهيونية ص ١٥ .

وخلاصة القول عند (باور) أن يضحى الإنسان بفكرة الدين أو الامتياز الملى (*Privilege of faith*) ليتلاقى الحقوق العالمية لإنسان العصر الحديث .

ونجاوز هذا الموقف النقدى إلى واقع المجتمع الأوروبى ، وتاريخ المبادىء التحررية أو الفكر الليبرالى ، فنرى الجانب الدينى المستهدف بالعداء اليهودى ، لم تزل به عوامل الثورة العقلية والتطور العلمانى حتى نزل إلى المرتبة الثانوية .

ولا جدال أن النزعة العلمية فى القرن الثامن عشر ، طبعت العقل الأوروبى بذلك الطابع العلمى الذى وقف بالفكر الدينى أو اللاهوت على منصة المحاكمة يستوى فى ذلك اللاهوت البروتستانتى والكاثوليكى كلاهما ، يقول بول آزار (*Hazard, P.*) « وعلى هذه الأوضاع نشأت قضية لم يسبق لها نظير ، هى « قضية الإله ... » وقد كان الإله فى ذلك الحين أمام المحاكمة وأن هذه المسألة كانت فى السلك العقلى هى قضية العصر الشهيرة ... تلك كانت مشكلة الكافة من الناس » (١) .

وإذا كان الناس قد شغلتهم « قضية الألوهية » على هذا النحو ، وانتهت بهم إلى طرد الله من هذا العالم ، فإن نيتشه قد قضى عليه وأعلن فى الناس على لسان « زرادشت » أنه قد مات » (٢) .

والمتتبع لتاريخ الفكر الأوروبى منذ هذا القرن ، لاتخفى عليه هذه المذاهب الفلسفية والأيديولوجيات الاجتماعية التى ثار عليها الأب بيلى (*Baillie*) لأنها من نواسخ الدين وموهنات العقائد (٣) .

---

(١) الفكر الأوروبى فى القرن الثامن عشر ص ٦٠ .

2) *Nietzsche*) : *Thus spake Zarathustra*, p. 5.

3) *Baillie* : *Invitation to Pilgrimage*. ff 16.

فالاحتجاج بالدين فى هذه القضية مماحكة يريدون أن يصرفوا بها الناس عن تأبّيهم على كل حل ، وتعصبهم على كل إصلاح ، فلقد رأينا القضية الدينية برمتها لا تكاد تدخل فى الحسبان ، وكان الزعم أن هذا الوضع وما لازمه من أوضاع التحرر الاقتصادى والاجتماعى ، دستورية كانت أو فعلية ، كلها كفيل بحل هذه القضية ، وقطع دابر العزلة اليهودية ، أو مشاعر الغربة ووجدان « الجيتو » فى أوروبا القرن العشرين فى أقل تقدير ، ولكن شيئا من ذلك لم يكن، يقول توينبى : « إن إنصراف قلوب (الجوييم) الاوروبيين وعقولهم عن اللاهوت التطبيقى إلى العلم التطبيقى عند نهاية القرن السابع عشر ، سريعاً ما استتبعه فى القرنين الثامن والتاسع عشر تحررُ اليهود الرسمى على المستوى الاجتماعى والسياسى مثل ما كان لديهم من حرية على المستوى الاقتصادى ، ولقد انتشرت هذه التطبيقات العملية السمحة الخيرة لمبادىء الثورة (أعنى سنوات ١٧٧٥ - ١٧٨٩ م) من فرنسا إلى ألمانيا وإيطاليا بواسطة الامبراطورية النابليونية أو سيطرة نابليون على هذه البقاع ؛ وانتشرت فى الدنيا الجديدة بالثورات التى حققت بها المستعمرات البريطانية ، فالأسبانية فالبرتغالية استقلالها، وفى سنة ١٩١٤ كان تحرر اليهود الرسمى فى كل ميادين النشاط الإنسانى قد صار حقيقة مقررة منذ زمن طويل ، وهكذا ظهرت القضية اليهودية عشية الحرب العالمية الأولى فى الغرب كما لو أنها وجدت حلا فى اتحاد المجتمعين المسيحى واليهودى اتحاداً قائماً على تكافؤ الطرفين بدلا مما هو مفروض من الأقوى على الأضعف » (١) .

ويعجب توينبى ، لماذا لم يندمج اليهودى مع الأوروبى فى هذا المجتمع

I) *Toynbee, A. : Astudy of History, V. 8. p. 287.*

البرجوازى على أى نحو من الأنحاء ، وقد تذللت له العقبـات ، وانفتحت له أبواب الحياة جميعاً على قدم المساواة مع الأوربى ، بينما نزل الدين فى المجتمع عن مكانته ليكون أمراً ثانوياً ، أو لا أهمية له على الإطلاق ، (١)

وهذا العجب هو بيت القصيد ، لأنه سينتهى به إلى الكشف عن هذه « الماسونية » اليهودية أو التضامن القبلى الذى تستحكم أطرافه على امتداد العالم إزاء هذا « الجويم » الأوربى وغير الأوربى .

وأستاذنا الدكتور محمد عبد المعز نصر وهو من أول المنصفين فى فكره ووجدانه ، وفى بحثه ونظره ، لم يجد بدا من أن يعزو هذه العزلة إلى طبائعهم التاريخية فى بعض أصولها وأسبابها « فهى عميقة فى نفوسهم متأصلة فى ماضيهم » على حد تعبيره ، يقول : ولقد كان من الممكن أن نأخذ برأى بعض كتاب اليهود الذين يعزون هذه الظواهر الظاهرية الانعزالية إلى ما وقع على اليهود من اضطهاد الرومان واليونان ودول أوروبا المسيحية ، الغربية والشرقية ، لولا أننا اطلعنا فى التوراة على ما حدث من مناقشة بين يوسف عليه السلام وبين أبويه وإخوته.. فيوسف فى نصحه لأهله حاول أن يهىء لهم إقامة بعيدة عن الاختلاط بالمصريين ، وأن يحتفظ لهم باستقلالهم فى العيش رغم ما بدا من ترحيب فرعون بهم وكرمه معهم (٢) .

ويجىء ماركس فيأبى أن يقف عند هذا الحد من التحرر السياسى أو الاقتصادى أو الدينى الذى ناد به (باور) مهما بلغ شأر هذا التحرر ، فالنقد أو « نقد النقد » عنده يرى من العبث أن نربط القضية بهذه المصطلحات ، لأنها فى جوهرها ،

---

(١) المرجع السابق .

(٢) فى الفكر السياسى العربى فى المجتمع ص ٣٣٠ .

«ظاهرة إجتماعية ، لا سياسة فيها ولا دين، فهي رهن بخصائص المجتمع البرجوازي، وبقاؤها في بقائه ، فاليهودية ـ عنده ـ لم تبلغ ذروتها إلا ببلوغ المجتمع البرجوازي ذروتـه » (١) .

فكلاهما يقوم على خلة المتاجرة ، أو ان شئت على النظام النقدى **money-System** لأنه هو جوهر هذا المجتمع البرجوازى كما هو جوهر اليهودية ولا فرق ، فإلغاء اليهودية لا يكون إلا بإلغاء النظام النقدى ، وهو أمر واجب على البشرية بأسرها لأن فية خلاصها من العلائق الوحشية والصراع الطبقى البغيض . يقول ماركس: « إن تحرير اليهود . أو التحرير الإنسانى لليهود ، لا يؤخذ من ثم على أنه أمر يخص اليهود وحدهم كما فهم باور (*Bauer*) ، وإنما هو أعم من ذلك لأنه يخص العالم كله اليوم ، ذلك العالم الذى هو يهودى إلى الصميم ، ولقد ثبت أن العمل على إلغاء جوهر اليهودية ، فى حقيقته هو العمل على إلغاء اليهودية فى المجتمع المدنى ، وأعنى إلغاء الوحشية أو اللاإنسانية فى ممارسة الحياة المعاصرة التى يتربع على قمتها النظام النقدى » (٢)

وتفصيل هذا الرأى أن اليهودية يهوديتان : يهودية « السبت » أو اليهودية الدينية الصحيحة ولا وجود لها اليوم عنده ، أما الأخرى فهى اليهودية المعـاصرة ولا تمت إلى الأولى بسبب . وإنما هى الجانب الدنيوى أو التطبيق العـملى لخلق المتاجرة ومطالب المال والأعمال .

ولقد جاءت المسيحية على يدى المسيح لتنتزع اليهودية من حمأة المادية وتكون

---

1) ***Marx & Engels. The Holy Family or Critique of Critical Critique, p. 147***

(٢) المرجع السابق ص ١٤٨ .

مثلها الأعلى فى التعفف والزهد ، إلا أنها فى هذا العصر نزلت عن مثاليتها إلى حضيض اليهودية العملية ، فالتقت كلتاهما على صعيد المجتمع البرجوازى الذى تقوم علائقه على حـــرب الإنسان أخاه الإنسان ، أو إن شئت حرب الجميع الجميع ، لإن هذا المجتمع يقوم على الصراع الطبقى ، فكل طبقة تريد الخير لنفسها على حساب غيرها ، ولقد شاء التطور التاريخى أن يصل بالرأسماليين فى هذا العصر إلى قمة المجتمع باحتكارهم وسائل الإنتاج وأدواته .

وينزل النقد والتحليل عند ماركس بالحكومة فى هذا المجتمع من عليائها الموهومة وسيادتها المصطنعة إلى مكانها العلى من التبعية المهينة لرأس المال ودكتاتورية التمويل والممولين .

وهذه الدكتاتورية هى البلاء ، ولا خيار للبشرية فى حرب الخلاص . لتخليص العالم من أوضارها ، أمر مقدور فى سنة التطور أو « الحتمية » التى لا مهرب منها ، لإن التاريخ سينتهى — ولا بد — بانتصار الطبقات الكادحة مادة الظلم وموضوع الاستغلال ، لتصبح هى الطبقة الوحيدة التى تنتفى معها أسباب الحرب والصراع ، لأنها لن تتناقض مع نفسها ، وليس هناك — بعدُ — ما يتناقض معها من الطبقات ، فتمحى عندها كل خصائص المجتمع البرجوازى وبامحاء هذه الخصائص اللاإنسانية تمحى الظاهرة اليهودية من الوجود ، ويقول ماركس: « وحين ينجح المجتمع فى إلغاء الجوهر العملى لليهوديه وهو المتاجرة وشروطها فعندئذ يستحيل وجود اليهودى . . . لأن الأساس الذاتى لليهودية . . . يكون قد اتخذ شكلا إنسانيا ... إن التحرر الإجتماعى لليهود إنما هو تحرير من اليهودية » (١) :

---

(١) المسألة اليهودية ص ٦٤ .

ويجىء لينين (*Lenin*) وقد تحقق هذا الأمل على يديه فى ثورة أكتوبر ١٩١٧ ، وسيطرت البروليتاريا (*Proletariat*) على مقاليد الحكم ، ومهد الطريق لامحاء الفوارق البرجوازية والامتيازات السياسية والاجتماعية ، فضلا عن الامتيازات الدينية والقومية ، واجتمع الناس معه على وحدة النضال ، يثبتون به قواعد المجتمع الجديد .

وكان حرياً باليهود أن تجمعهم هذه الوَحدة الطبقية على صعيد من الإخاء الشعبي والإنسانى ، أما الروح الصهيونية فقد تقمصت فريقاً من اليهود ، والنضال على أشده عام ١٩٠٣ والنصر يومئذاك فى طى الغيب ، فتنادوا باستقلالهم حزباً قائماً بذاته يضم العمال اليهود فى روسيا وبولونيا ولتوانيا ولتوانيا عليه اسم الحلف أو البوند (*Bund*) وأذاعوه فى أوروبا ، فانزعج (لينين) بحق ، لأنه تحطيم لوحدة النضال وتشتيت للجهد ، وهو فوق ذلك تنكر للاندماج الذى تهيأت أسبابه وتكاملت دواعيه ، فكتب يقول (ينبغى الاندماج التام والأوثق مع البروليتاريا الروسية ، وينبغى ذلك لمصلحة النضال الذى تخوضه كل بروليتارية روسيا)(١) .

وكل حجة يسوقها هؤلاء الصهاينة بعد ذلك — يبررون بها العزلة أو ظاهرة (الجيتو) إنما هى - عنده - حجة داحضة ، فسيطرة البروليتاريا كفيل بإزالة الفوارق وإلغاء كل امتياز ، لأن المساواة من صميم (المبادىء الديمقراطية لهذه الطبقة العاملة) .

ولم يختلف (ستالين) عن أستاذه لينين فى موقفه من هـــذه القضية ،

---

(١) حول وحدة الحركة الشيوعية العالمية ص ٣٠

فثار معه على روح « الجيتو » التى يثيرها الصهاينة ، ليقفوا باليهود دائماً على أهبة الهجرة والرحيل ، فلا يموت فيهم حلم العودة بالاندماج والسكينة ، وقد رماهم لينين من جراء ذلك بالعصبية القومية أو الشوفينية (*Chauvinism*) المقيتة .

وجاء بيان ١٩١٨ يفرق لهم بين البرجوازية واليهودية ، وينص على أمر لا لبس فيه ، فالدولة فى عدائها لليهودى البرجوازى ، إنما تعادى فيه البرجوازية لا اليهودية ، وحرب البرجوازية من صميم المذهب بل هو لبه وجوهره .

وهذا هو صميم التناقض بين الماركسية اللينينية وبين الصهيونية العالمية وهو سر العداء الذى استحكم ولا يزال بين الفريقين ، لأنهما مذهبان متخارجان أو (هما عنصران ينفى أحدهما الآخر نفيا تاما)[1] كما يقول يورى إيفانوف .

وهذا أمر طبيعى ، فالصهيونية ربيبة الامبريالية ، وهى مطيتها فى السياسة وفلسفة الحكم ، وليس وراء ذلك سبب للبغض والعداء كما هو معروف ، يقول يورى إيفانوف (وفى روسيا لم يرق للصهاينة الحكم السوفيتى ، والنظام الاجتماعى والحكومى الجديد الذى كان يترنح تحت قيادة فلاديمير إيليتش لينين ليضع حدا لاستغلال الإنسان أخاه الإنسان ، لم يرق للصهاينة هذا النوع من الحكم بنفس الدرجة التى لم يرق فيها لحماتهم الإمبرياليين)[2] .

ذلك هو العصر الحديث ، بأروع ما عرفته البشرية من نظم وحضارة ، تقف على رأسها هاتان النزعتان الكبريان ، وأعنى بهما الليبرالية أو التحرر

---

(١) و (٢) احذروا الصهيونية ليورى ايفانوف ص ٧٤ .

السياسى ، والاشتراكية أو التحرر الاجتماعى ، قضت أولاهما على الفوارق السياسية ، والثانية على الامتيازات الاجتماعية ، وبرز بينهما الإنسان أعظم ما يكون سموا وأوفر شرفاً وجاها ، وأصبحت هذه (الإنسانية) نشيد الأدباء وفلسفة الكتاب ، وإنجيل المصلحين وأنبياء العصر الحديث .

وكان حرياً باليهود أن يجاوزوا وجدانهم القبلى وعصبيتهم الشوفينية ، أو نزعتهم العنصرية ، فتنحل قضيتهم فى غضون هذا الإخاء الإنسانى والتضامن البشرى .

ولا يزال فلاسفة هذه النظم عند هذا الرأى فى الشرق والغرب ، ولا تزال مواقفهم السياسية تستمد وحيها من هذه الفلسفة إلى حد كبير .

إلا أن السياسة الأمريكية قد ضربت عُرض الحائط بكل ما هو فكر ، وبكل ما هو علمى ومعقول ، ولقد سمعنا فى ذلك من الأسباب ما لا يستقيم مع الإنصاف ، ولا يتفق مع المفروض فى الأمم الكبيرة من الرويّة وخلق العدل .

ومهما قيل فى هذه الأسباب ، فإن الواقع الذى لا دافع له ، أن أمريكا تحمل لواء التشيع لإسرائيل بكل ما فيه من معان لا تتفق مع الجانب الإنسانى من الحضارة الأوروبية ذاتها .

فليس هناك أمريكى واحد مهما كانت مكانته فى الدولة ، حاكما أو محكوما ، يفخر بما تنزله الأسلحة الأمريكية فى هـــذا الشرق من الكوارث على أيدى الصهاينة وعملاء التعصب القبلى ، فالأمريكيون يعلمون أن إسرائيل أبشعُ موقفاً من كل أولئك الذين اضطهدوا اليهود طوال السبعة عشر قرناً الماضية ، لأن اليهود اليوم يدركون ، بشاعة ما يصنعون ، (فهم فيه أقل عذرا من بختنصر

وهارديان ومحاكم التفتيش) كما يقول توينبي ، وقد كان جديراً بهم ـ وقد ذاقوا ما ذاقوا ـ أن يكونوا أول كافر به ، ولـكنهم نـكبوا به غـيرهم وأصبحوا أساطين الاضطهاد لأول مرة فى تاريخهم الحديث .

وأغرب من ذلك أن يكونوا جلادين لغير جلاديهم ، وأن يقتصوا من قوم شاءت الظروف وحدها أن يكونوا (أضعف مما كانوا عليه من قبل) .

وكل ذلك لا يخفى على الامريكيين ، بل لا يخفى عليهم ما هو أبعد من ذلك مما تنبأ به واحد من يهودهم هو الأستاذ فريدمان (*Freedman*) ، حين خشى أن تقوم الحرب العالمية الثالثة من جراء (الأضحوكة المقدسة) أو أضحوكة شعب الله المختار على حد تعبيره (١) .

ولـكن الأمريكيين يلتمسون لأنفسهم الحجج الفجة والمعاذير ، كما التمسوها من قبل فى إبادة الهنود الحمر ، فهم (بلاطس) (*Pilate*) القرن العشرين ، يريدون أن يبرئوا أنفسهم مما يصنعون ، ولـكن القتل هو القتل ، لا اعتذار فيه ولا براءة منه ، وهنـا يحق فيهم قول (توينبى) عندما كان سكرتيراً للمعهد الملكى البريطانى للشئون الخارجية ، (إننا نعمل بأيدينا ما ننكره بشفاهنا)(٢)

ولا يقال ما بال أمريكا تحمل عن الدول الأوروبية الضالعة مع إسرائيل كل هذه المخازي والأوضار .

لا يقال ذلك لأنها ورثت عن الحضارة الأوروبية ميراثاً ضخماً من مشاعر الاستغلال أو نزعات الإمبريالية والاستعمار ، والصهيونية العالمية تعلم منها هذا

---

(١) المرجع السابق فى ص ٥٠ من هذا البحث .

(٢) الحكومة العربية ص ٣١ .

الخلق ، أو هذه المشاعر أو الطبائع ، وتعلم أنها مسوقة إليها - لا محالة - لأنها طبائع النظم البرجوازية التى تصطدم - ولا بد - مع كل نزعة من النزعات التحررية المعاصرة .

وقد ركبت إسرائيل موجة هذا الصدام المذهبي ، فحملت عن أمريكا عبء التوطن الاستعمارى ، والوجود العسكرى وحملت عنها أمريكا عبء السلاح والمساندة والتأييد .

ولإسرائيل - بعد ذلك - أهدافها الخاصة فى التوطن واحتكار الطريق بين الشرق والغرب ، لأنه لا يزال وجهاً قوياً من وجوه التحكم فيما بين صناعة الغرب وتجارته وما بين مطالبها من مواد الشرق وأسواقه ، ولا شك أن التحكم فى الصناعة والتجارة تحكم فى حضارة العالم ونظمه ، وتحكم فى حربه وسلامه ، لأن التجارة والصناعة اليوم هما « مَلكية » العصر ، بكل ما كان للملكية فى العصور الوسطى من السيطرة والسلطان .

فالقضية - إذن - قضية الصراع المذهبي ، بما ينطوى عليه من مناطق النفوذ ومطامع الاستغلال ، وليس وراء ذلك عند الصهيونية والإمبريالية غاية مقدسة تُرتكب فى سبيلها أبشع أنواع الحماقة والغدر ، وتستباح فيها كل المبادىء والأخلاق .

ذلك هو خطر الصهيونية فى منطقة واحدة وعلى شعب واحد ، وليس هو كل الخطر ولا أخطره ، فأخطر أخطار الصهيونية ما تستهدف به الإنسانية فى ذاتها ، وحسبنا فى هذا الصدد كتاب « الحكومة السرية » التى زعمها (اللفتنانت كولونيل جون كريج سكوت) تحكم بريطانيا ، وهى شاخصة من وراء ذلك إلى حكم العالم كله ، والكتاب ملىء بالأدلة والبراهين على هذا الهدف العجيب .

وقلنا الهدف العجيب لأنه يعتبر عصبة الأمم وهيئة الأمم كلتيهما من خلق الصهيونية ، ومستقر نفوذها العالمى ، وهو زعم يشركه فيه القاضى «أرمسترونج» الأمريكى ، فلقد كتب عام ١٩٤٨ كتاباً عن « الخونة » جاء فيه : « إن فكرة قيام عصبة الأمم وهيئة الأمم المتحدة ، تتبعها إمبراطورية صهيونية عالمية ، قد طرحت بهذا الترتيب الزمنى على بساط البحث فى المؤتمر الصهيونى الأول الذى انعقد فى بال عام ١٨٩٧ ، وقد أعلن الصهاينة المؤتمرون أن هدفهم يرمى إلى إخضاع الشعوب المسيحية فى العالم ، وتأسيس امبراطورية صهيونية ، يرأسها ملك يكون امبراطوراً على العالم كله » (١) .

ويلتقى الباحث العربى الدكتور رياض بارودى مع هذين الباحثين الاوروبى والأمريكى عند تمحيص هذا الهدف ، والإتفاق على ما وراء هذا الهدف من التآمر بالبشرية ، بحجج يسوقها هؤلاء الباحثون من التوراة والإنجيل ، وتقويم الأحداث التاريخية والأفكار السياسية والاقتصادية والاجتماعية وليدة هذا العصر الحديث (٢) .

والناس يهولهم أن يصدقوا هذا الهدف البعيد ، فيفزعون فى أمره إلى الكذب ، وينظمونه فى الوهم وسلك الخيال ، إلا أن الشك لا يلبث أن ينتاب الناس كلما رأوا القضايا الصهيونية ، كان لها مكان ملحوظ فى صلح فرساى عام ١٩١٩ وفى ميثاق عصبة الأمم من بعد ، وحسبنا شاهداً أن يسمع المؤتمر فى فرساى صوت دولة لا وجود لها ، ويأبى على مصر وغيرها من الشعوب الموجودة حق الشكوى بل مجرد الكلام .

---

(١) الحكومة السرية ص ١٧

(٢) اليهودية العالمية لبارودى — الفصل السابع والثامن .

وها هى ذى اليوم تجد فى هيئة الأمم من المحاباة والانتصار لها ، مالا تجده أعدل قضايا الأمم والشعوب فى هذا العصر الحديث وعلى رأسها قضية (زيمبابوى) أو روديسيا (*Rhodesia*) وقضية شعب فيتنام العظيم .

ولا تعليل لذلك إلا « بالخُلق الدولى » والتقائه مع الصهيونية على صعيد واحد من « النفعية » الخالصة أو المصلحة الحالة ، ففلسطين العربية ـ كما يقول أستاذنا الدكتور محمد عبد المعز نصر ـ هى « الربا السياسى » الذى دفعته انجلترا وأمريكا لليهود ، يقول : « وليس المجال هنا مجال التفاصيل ، إنما البحث فى مشكلة الصهيونية يدل على مأساة الخلق الدولى لا مأساة فلسطين وحدها ، فقد ساوم اليهود بأسلوبهم التقليدى أغلب دول العالم على تأييدها فى الصفقة التى عقدتها مع انجلترا والولايات المتحدة ، وذلك فى ساحة عصبة الأمم بين الحربين ، وهيئة الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، ولقد نجحت المساومة » (١) .

وإذا كانت الدول الاشتراكية وعلى رأسها الاتحاد السوفيتى تلتقى وإيانا فى هذا النضال على المبادىء الإنسانية فى حرب الاستعمار والصهيونية العالمية ، فان الدول الاوروبية قد استشعرت هذا الخطر الصهيونى ، وأحست طبيعته العدوانية تريد أن تشرَه ، فعدّلت من مواقفها على نحو أو آخر صنيع فرنسا على وجه الخصوص .

ويوم تتكشف للعالم هذه الطبيعة العدوانية ، وما كانوا يجهدون أنفسهم فى إخفائه ، فإن العالم سوف يعلم أن الشرق يحمل فى كفاحه المقدس « خلاص » البشرية من هذا الشر الذى ناءت به أوروبا ، واضطرب أمرها فى أمره ، فألقته مسخاً مشوهاً على عاتق الشرق العظيم ، ولن يستتم هذا المسخ خلقه على النحو الذى تريده الصهيونية أو الاستعمار بإذن الله ، ويومئذ يفرح المؤمنين بنصر الله » .

---

(١) فى الفكر السياسى العربى والمجتمع ص ٣٤٢ .

ولا يقال إننا نسقط الكفاح هنا بدعوى الإيمان ، لأننا لا نعني إيمان الذين قالوا لموسى : « اذهب أنت وربك فقاتلا إننا ها هنا قاعدون » ، وإنما نعني إيمان الذين قالوا لمحمد يوم بدر « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون » (١) فالنصر لا يكون إلا بحقه وما الفرح هنا إلا بالوفاء .

ولا اختلاف بين الأمة العربية على بذل النفس والمال ، وجهد الاصلاح في التطور والتطوير ، لأنه بذل تتقاضاه « الكرامة » قبل أن يتقاضاه غيرها من أسباب الدين والمذهب أو العقيدة والسياسة ، فضلا عن الأقتصاد ومطالب البقاء ، وليس وراء ذلك حق مشروع دينا ودنيا . أو عاطفة وعقلا ، أو ما شئت من أسباب الإيمان والاعتقاد أو النظر والتفكير .

وما ينقمه الناقمون من الأمة العربية لا يغير وجه القضية في شيء ، لأن القضية العربية ـ اليوم ـ تتجاوز كل صنوف الجدل والحوار ، والحق العربي أبعد شأوا مما ينيطون به مآخذهم من العلل والأسباب ، لأنه حق « الوجود » كما يقولون ، أو هو حق البقاء الذي أجمعت عليه المواثيق الإنسانية والدساتير التحررية في هذا العصر الحديث في أقل التقدير .

وهو آخر الأمر يلتقي مع الباطل الصهيوني الذي لا يستطيع أن يصارح العالم بنواياه الشاخصة إلى استغلال الشرق والسيطرة المزعومة المقبلة على هذا العالم ، وإنما يخدع الناس بالدعاوى التاريخية ودعاوى الامتياز التفوق ثم دعاوى الحضارة والتمدين ، وكل ذلك لا يثبت ـ عندنا ـ على التمحيص ولا يسلم عند أنصاره من التأويل والتمحل في التخريج .

---

(١) الروض الانف جـ ٢ ص ٦٤ .

فالحق التاريخي هو « الأضحوكة المقدسة » التي أجازوها عند الأستاذ فريدمان (Freedman, B.) ، على عامة الأمريكيين وخاصتهم لتنتهي بالعالم إلى الحرب العالمية الثالثة ، وما لهم في هذا الحق التاريخي من شيء ، لأن المعاصرين منهم في العالم الغربي لا يمتون إلى يهود « السبت » بصلة ، فليسوا من سلالة « الأسباط » أو أبناء يعقوب وإنما هم سلالة الخزر الذين تهودوا في العصور الوسطى ، ونزحوا من شمال البحر الأسود إلى شرق أوروبا وغربها على السواء .

ويجيء « توينبي » فيزيف لهم دعوى « إرادة الحياة » أو التأبي على الفناء ، فظاهرة « الدياسبورا » التي يوحون إلى الناس أنها الرمز التاريخي لصراعهم من أجل البقاء ليست قصراً عليهم ، وإنما هي تراث مشترك أو ظاهرة تاريخية يشركهم فيها الزرادشتيون والنساطرة واليونان الأرثوذكس والشيعة بين المسلمين ، فكل أولئك في القديم والحديث قد نهج على سنة « الدياسبورا » في البقاء ، فاستمسك بالرباط الديني عندما فقد دولته وما يتصل بها من الرباط السياسي وجامعة الوطن أو الإقليم .

فاليهود ليسوا بدعا في هذه « الدياسبورا » وإنما هي ظاهرة تاريخية تدخل في زمرة الأفعال وردود الأفعال ، أو في باب الطبائع وسنة البقاء التي نراها عند « وولت ديزني » في عالم الحيوان والنبات ، فنعجب بها . ولا يخطر على البال أن نعزوها إلى عبقرية خاصة أو حيلة مقصودة ، ولا جدال ـ بين الناس ـ أن العبقرية التي تفخر بها الأمم والشعوب إنما تكون فيما تسهم به من قيم حضارية في ركب الإنسان .

ثم نأتي إلى دعوى الامتياز المطلق ، أو « شعب الله المختار » فلا نقف

عند المغامز الساخرة فى هذا الأمر ، وإنما نحتكم إلى التاريخ فى شأن هذا الامتياز ، فنرى شعوباً أخرى قد امتازت على غيرها ، وتربعت على عرش السيادة العالمية حقبا من الدهر ، صنيع اليونان والرومان والعرب ، فكل هؤلاء قد ساد العالم على عهده وأطلق على غيره الأسماء والألقاب للتفريق والتمييز ، فورثنا عنهم كلمة « البربرى » و « الأعجمى » كما ورثنا كلمة « الجويم » عن شعب الله المختار .

وإلى هنا ولا فرق بين هؤلاء وهؤلاء ، وإنما الفرق عند النظر فى مضمون هذه الأسماء والألقاب . وما تنطوى عليه من الحقوق أو ما يعلق بها من مشاعر التمييز عند كل فريق .

فالبربرى(*Barbarian*) مصطلح يقفون به عند حدود الاختلاف فى اللغة وفى طريقة النظر والتفكير على وجه الخصوص ، لأن اليونان والرومان كانوا يعتدون بالنظام الفكرى معياراً للتمدن أو الحد الفاصل بينهم وبين الأمم والشعوب ؛ يقول كيتو (*Kitto*) فكلمة « بربروس » الإغريقية لا تعنى بربرياً بالمعنى الحديث ، فهى ليست لفظا أو احتقاراً ، وإنما تعنى أصلا أو فى أساسها أولئك الذين لا يعيشون أو يفكرون كالإغريق » [١] .

فالإغريقى كان يعلم تفوق غيره من شعوب الشرق الأدنى ومصر على رأسها ، وكان يعجب به ويحسد أهله عليه ، ولكنه كان يؤمن أنه تفوق موقوت لأنه تفوق عملى يموت بموت صاحبه ، أما هو فامتيازه خالد أبدا لأنه امتياز عقلى ، و« مهما كان إعجابه أو حسده للبربرى لسبب أو لآخر إعجابا أو حسدا كبيرا فإنه لم يكن يملك إلا أن يدرك هذا الإختلاف » . (٢)

---

(١) الاغريق لكيتو ترجمة الدكتور محمد صقر خفاجة ص ٣ .

(٢) المرجع السابق .

أما كلمة « أعجمى » فلا تعدو الاختلاف اللغوى ثم ينقطع دابر التفاضل والتمايز بحكم الإسلام ، « فلا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » ، سنة متبعة لا يختلف عليها اثنان ، لأنها ترتد إلى البديهة التى لا تحتاج إلى بيان فكل الناس لآدم وآدم من تراب ، يقول صلى الله عليه وسلم : « أيها الناس كلكم لآدم وآدم من تراب ، إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ليس لعربى فضل على عجمى ، ولا لأسود فضل على أحمر إلا بالتقوى » .

على أننا لا ننكر ما تلبست به ـ مشاعر هذه الأمم من الزهو وغرور الامتياز ، إلا أن هذا لا يغير من الأمر شيئا ، لأن الانحراف من سخائم النفس التى لا يقاس عليها ، وإنما العبرة بأصل هذا المصطلح أو ذاك ، ولا جدال أن هذا الأصل لم يزل قائما مقام المثل الأعلى فى النفوس ، فهى تسترشده أو تطمح إليه عند كل سعى إلى الأخوة والمساواة ، شأن الرومان فى نزعتهم العالمية « بقانون الشعوب » ، وشأن ورثتهم من الأوروبيين فى فلسفة « الحق الطبيعى » فى مطلع القرن الماضى أو هذا العصر الحديث (١) .

ولما أرادها العرب عنجهية جاهلية أباها عليهم المسلمون ، واستأثروا دونهم بسلطان الحكم والخلافة ، جريا على سنة المواساة التى شرعها الإسلام بين الشعوب ، وهذا الوجدان العظيم هو الذى سوغ للأستاذ الإمام أن يقول فى هذا العصر الحديث : هذا ما أرشدتنا إليه سير المسلمين ... لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الأجناس ، لهذا ترى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندى يذعن لرياسة الأفغانى ، ولا اشمئزاز عند أحد منهم ولا انقباض » (٢) .

---

(١) مقدمة تاريخية للتفكير السياسى عند الاثينيين للدكتور لطفى عبد الوهاب ص ١١٨/١١٩ .

(٢) تاريخ الاستاذ الامام جـ ٢ ص ٢٢٥ .

ثم تجىء كلمة (الجويم) ، وهى بلا شك أبشع هذه المصطلحات على الاطلاق، لأنها لا تقف بمعناها عند (اللايهودى) كما تدّعى دائرة المعارف البريطانية وما وقع تحت أيدينا من القواميس ، وإنما تمتد إلى ما لا يصدقه العقل فى الناس ، فالجويم مطردون من رحمة الله فى الدنيا والآخرة ، يجوز فيهم ما يجوز فى الحيوان من إباحة دمه وماله وعرضه ، وهذا ما تقضى به آدابهم الدينية ومواثيقهم السرية .

جاء فى حديث دائرة المعارف اليهودية عن الجويم «ومع مثل هذه الخصائص المبينة فيما أسلفنا يكون من الخطر وعدم الاحتراز أن نثق فى الجويم شاهدا فى جناية أو فى قضية مدنية لأنه لا يوثق به فى وعده ولا هو عند كلمته كاليهودى» .

وأنت تقرأ هذه المادة كلها فترى النصوص تكاد تصدر من معين واحد ، هو روح التقديس والسمو باليهودى إلى رتبة الأنبياء والملائكة ، وكأن العالم كله موكل بالمحافظة عليه من كل مكروه [1] .

ولا يغير من بشاعة هذا الوضع ما اعتور هذه المعانى من التغير والتطور ، منذ العصور الوسطى على أيدى ابن ميمون ومن بعده من الفلاسفة كما تدعى دائرة المعارف اليهودية ، لأن ذلك كله من باب الاجتهاد المشكور فى التفسير والتأويل ، ولكنه لا يمحو كل المحو ما تنطوى عليه نفوسهم من هذه المعانى التاريخية أو الرواسب النفسية ، ولا ينكر الباحثون آثار هذه (الموروثات) على التصرف والسلوك على الرغم من الاحتياط ، وما يبذله الناس فى سترها من الجهد والاحتراز .

هذه بعض وجوه الباطل الصهيونى الذى يلتقى مع الحق العربى فى هذا الصراع الدائر على أشده ، ولا شك ـ عندنا ـ أن هذا الحق ، بعيداً عن كل ما يتلبس

---

(1) *Jewish Encyc.* مادة *Gentile*

بالقضية من الاعتبارات التي عرضنا لها في هذا الفصل ، سوف ينتصر بأهله آخر الأمر ولا بد .

وأنت تقرأ شعر المقاومة فتقع منه على مشاعر التصميم والعزم والتضحية والفداء ، إصرارا على العودة وإصرار على النصر الكبير ، وقد يطول بنا الحديث لو تتبعنا هذا الشعر ولن يجزىء أى شاهد مهما طال ، لأن هذه المشاعر ليست قصرا على شعراء الأرض المحتلة وإنما هى قضية الأمة العربية كلها من أقصاها إلى أقصاها ، فما من شاعر إلا وله فيها نصيب وإنما حسبنا هذه الغضبة من شاعر هذه الأرض محمود درويش ، ففيها كل خصائص الثورة النفسية والتى كان هذا الفصل كله تفصيل لإجمالها :

إنى عرفت الدرب يا شعبى المدرع بالرعود
حيث الجماهير الغفيرة تستفيق من السجود
حيث الجماهير التى سارت على لهب النشيد
يا إخوتى ، لن يحطم الصخر الأصم سوى الحديد
وعروسنا الحمراء ليس يزفها غير الصمود
والحق لن تشريه غير النار يا شعب الخلود
لست الوحيد ، أرى الرفاق تدفقوا شلال صيد
بقلوبهم إصرار شعب لا ينام على القيود
وعيونهم براقة تكتبن ملحمة الخلود
فى كل جرح من جراحهم سراج ضحى جديد
فإذا انطفا فجر سيطلعه لنا جرح الشهيد[1]

ولا أظن مثل هذه الثورة العارمة والقوة النفسية الطاغية إلا بالغة حقها بإذن الله ، ذلك بأن الله هو الحق ، والله غالب على أمره ، ثم نعود فنقول (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله) .

---

(١) عصافير بلا أجنحة لمحمود درويش ص ٤٤ .

المراجـــع

إبراهيم خليل أحمد : المستشرقون والمبشرون فى العالم العربى والإسلامى ، مكتبة الوعى العربى بالقاهرة ١٩٦٤

أحمد بهاء الدين : إسرائيليات ، كتاب الهلال ، دار الهلال بالقاهرة ١٩٦٥

أحمد سويلم العمرى : النظم السياسية الحديثة فى البلاد العربية ، الأنجلو ١٩٦٩

أحمد شلبي : مقارنة الأديان ، اليهودية ، مكتبة النهضة ١٩٦٧

إسرائيل كوهين : هذه هى الصهيونية ، ترجمة لجنة اخترنا لك ، القاهرة ١٩٥٤

أمين فكرى (نجل عبد الله باشا فكرى) : السفر إلى المؤتمر ، القاهرة .

أولــيرى : الفكر العربى ومكانه فى التاريخ ، ترجمة الدكتور تمام حسان ، مراجعة الدكتور مصطفى كمال حلمى ، وزارة الثقافة والإرشاد القومى ١٩٦١

إيفانوف ، ى. : احذروا الصهيونية

بارت ، ر. : الدراسات العربية والإسلامية فى الجامعات الألمانية (المستشرقون الألمان منذ تيودور نولدكه) ، ترجمة الدكتور مصطفى ماهر ، دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة ١٩٦٧

بارودى ، رياض : اليهودية العالمية ، دار الثقافة ببيروت .

بروكلمان ، كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة نبيــه فارس ومنير البعلبكي ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٦٥ .

بلنت ، الفريد : التاريخ السرى لاحتلال إنجلترا لمصر ، ترجمة لجنة اخترنا لك بالقاهرة (ثلاثة أجزاء) .

البيطار ، صلاح : السياسة العربية بين المبدأ والتطبيق ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٦٠ .

تشايلدرز ، أرسكين : الطريق إلى السويس ، ترجمة خيرى حماد ، الدار القومية ١٩٦٢

تمبرلى وجرانت : أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ترجمة بهاء فهمى مراجعة الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، مؤسسة سجل العرب بالقاهرة .

توينبى ، أرنولد : مختصر دراسة التاريخ ، ترجمة فؤاد محمد شبل ومراجعة محمد شفيق غربال والدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، جامعه الدول العربية ، القاهرة ١٩٦٦ ، (أربعة أجزاء) .

جب ، هـ. أ. ر. و خرون :

١ — وجهة العالم الإسلامى (نظرة فى الحركات الحديثة فى العالم الإسلامى) ، ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ، المكتبة التجارية بالقاهرة ١٩٣٤ .

٢ — تراث الإسلام ، مجموعة مقالات ، ترجمة لجنة الجامعيين للنشر ، القاهرة ١٩٣٦ .

الجبرتى ، عبد الرحمن : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار (المعروف بتاريخ الجبرتى) ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

حسن صبحى : التآمر الصهيونى ضد الأمة العربية ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٦٨ .

ديورانت ، و ل : قصة الحضارة (الشرق الأدنى) ، ترجمة محمد بدران جامعة الدول العربية ، القاهرة .

الرافعى ، عبد الرحمن : الحركة الوطنية ، مكتبة النهضة ط ٣ ، ١٩٥٥ .

ريسلر ، جاك س . : الحضارة العربية ، ترجمة غنيم عبدون ومراجعة الدكتور أحمد فؤاد الأهوانى ، الدار المصرية للتأليف والترجمة .

سابابن ، ج : تطور الفكر السياسى ، ترجمة حسن جلال العروسى ، دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٤ (جزآن)

ساطع الحصرى (أبو خلدون) :

١ - ما هى القومية ، القاهرة ١٩٥٩ .

٢ - آراء وأحاديث فى القومية العربية ، القاهرة ١٩٥١ .

٣ - دفاع عن العروبة ، بيروت ١٩٦٦ .

سكوت (الليفتنانت ج. ك.) : الحكومة السرية فى بريطانيا ، ترجمة دار النصر بالقاهرة ١٩٥٧ .

السهيـــلى . الروض الأنف ، القاهرة (جزآن فى مجلد) .

شوقى عبد الناصر : بروتوكولات حكماء صهيون وتعاليم التلمود (تقديم وتعليق) مطابع دار التعاون بالقاهرة ط ٢ .

صلاح دباغ : الاتحاد السوفيتى وقضية فلسطين ، مركز أبحاث منظمة التحرير الفلسطينية ، بيروت ١٩٦٨ .

طبارة ، عفيف عبد الفتاح : اليهود فى القرن ، دار العلم للملايين ، بيروت ط ٢ ١٩٦٦ .

الطبرى ، أبو جعفر محمد بن جرير : تاريخ الرسل والملوك (المعروف بتاريخ الطبرى) ، تحقيق أبو الفضل ابراهيم ، دار المعارف بمصر (عشرة أجزاء) .

طه حسين : ١ ـ فى الادب الجاهلى ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ط ٣ ، ١٩٣٣ .

٢ ـ مستقبل الثقافة فى مصر ، دار المعارف بمصر ١٩٤٤ .

عادل أحمد شكرى : النازية بين الأيديولوجية والتطبيق ، الدار القومية ، القاهرة

عبده على الراجحى : الشخصية الاسرائيلية ، دار المعارف بالاسكندرية ١٩٦٨

العقيقى ، نجيب : المستشرقون ، دار المعارف بمصر (ثلاثة أجزاء) .

فؤاد محمد شبل : حضارة الإسلام فى دراسة توينبى للتاريخ ، المكتبة الثقافية عام ١٩٦٨ .

فان فلوتن : السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن ومحمد زكى ابراهيم ، مكتبة النهضة بالقاهرة ١٩٦٥ .

فروخ ، عمر : التبشير والاستعمار فى البلاد فى البلاد العربية ، عرض لجهود المبشرين التى ترمى إلى إخضاع الشرق للاستعمار الغربى ، المكتبة العلمية ببيروت ١٩٥٣ .

فشر ، هـ. أ. ل. : ١ ـ تاريخ أوروبا فى العصر الحديث ، ترجمة نجيب إبراهيم
وديع الضبع ، دار المعارف بمصر .

٢ ـ تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة محمد مصطفى
زياده والسيد الباز العرينى ، دار المعارف بمصر .

٣ ـ نابليون ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ومحمد نوفل ، دار
المعارف بمصر .

كارلايل ، ت : الأبطال ، ترجمة محمد السباعى ، مجـلة البيان ، القاهرة ،
سنة ١٣٢٩ هـ .

كونتون ، وليم : الأفريقى ، ترجمة حسن ابراهيم ، الدار القومية للطبـاعة
والنشر ١٩٦٣ .

كوهن ، هانز : عصر القومية ، ترجمة على أدهم .

كيلانى ، محمد سيد : السلطان حسين كامل أو فترة مظلمة فى تاريخ مصر (وقد
اعتمد صاحبه على صحف هذه الفترة وتقل عنهـا مقالاتها
وأخبارها والاوامر الصادرة فيهـا) ، دار العربى بالقاهرة
١٩٦٣ .

لاسكى ، هارولد : نشأة التحررية الاوروبية ، ترجمة عبد الرحمن صدقى وزارة
الثقافة والإرشاد القومى بالقاهرة .

لاندز ، دافيدس : بنوك وباشوات ، ترجمة الدكتور عبد العظيم أنيس ، دار
المعارف بمصر ١٩٦٦ .

لطفى عبد الوهاب يحيى : مقدمة تاريخية للتفكير السياسى عند الأثينين، الاسكندرية
ط ٣ ، ١٩٥٨ .

لوبون ، جوستاف :

١ ـ حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، ط ٣ دار احياء الكتب العربة ١٩٥٦ .

٢ ـ تاريخ اليهود فى الحضارات الأولى ، ترجمة عادل زعيتر مطبعة حجازى ١٩٥٠ .

لينين : ١ ـ حول وحدة الحركة الشيوعية العالمية ، دار التقدم بموسكو ١٩٦٨ .

٢ ـ المختارات ، دار التقدم بموسكو ١٩٦٦ (جزآن فى أربعة مجلدات) .

ماركس : المسألة اليهودية ، ترجمة محمد عيتانى ، مكتبة المعارف ببيروت سنة ١٩٥٦ .

مالك بن نبى : ١ ـ وجهة العالم الاسلامى ، ترجمة عبد الصبور شاهين ، مكتبة دار العروبه بالقاهرة ١٩٥٩ .

٢ ـ فى مهب المعركة ، مكتبة دار العروبة بالقاهرة ١٩٦١ .

٣ ـ تأملات فى المجتمع العربى ، مكتبة دار العروبة بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

محمد إبراهيم غزلان : موجز فى تاريخ الفكر الاقتصادى ، مطبعة التجارة بالإسكندرية ط ٢ ، ١٩٦١ .

محمد البهى : ١ ـ الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ، مطبعة أحمد على مخيمر ١٩٥٧ .

٢ ـ المبشرون والمستشرقون فى موقفهم من الإسلام ، مطبعة جامعة الأزهر .

محمد حسين هيكل : حياة محمد ، القاهرة ١٣٥٤ ﻫ .

محمد رفعت : التوجيه السياسى الفكرة العربية ، دار المعارف ١٩٦٤ .

محمد عبد المعز نصر : فى الفكر السياسى العربى والمجتمع ، مطـــابع الأهرام التجارية بالقاهرة ١٩٦٩ .

محمد عبده ، الأستاذ الإمام : تاريخه ومقالاته ، جمع وتأليف تلميذه محد رشيد رضا ، مطبعة المنار بالقاهرة ١٩٣١ (جزآن) .

محمد عوض محمد : الاستعمار والمذاهب الاستعمارية ، وزارة التربية والتعليم ط٣

محمد طه بدوى ١ ـ أصول علوم السياسة ، الإسكندرية ١٩٦٥ .

٢ ـ رواد الفكر السياسى الحديث ، الإسكندرية ١٩٦٧ .

محمد محمد حسين : الاتجاهات الوطنية فى الأدب المعاصر ، مكتبة الآداب بالقاهرة ط ٢ ، ١٩٥٦ .

هازار ، بول : الفكر الأوروبى فى القرن الثـامن عشر ، ترجمة الدكتور محمد غلاب ومراجعة الدكتور إبراهيم بيومى مدكور ، جامعة الدول العربية بالقاهرة ١٩٥٧ (جزآن) .

هتـــلر : كفاحى ، منشورات المكتبة الأهلية ببيروت .

هيرولد ، ج. ك. : بونابرت فى مصر ، ترجمة فؤاد أندراوس مراجعة الدكتور محمد أنيس ، دار الكاتب العربى بالقاهرة ١٩٦٧ .

هوبسون ، ج. أ. : الإمبريالية ، ترجمة عبد الكريم أحمد ، مراجعة على أدهم وزارة الثقافة والإرشاد القومى ، بالقاهرة .

هونكه ، س. : فضل العرب على أوروبا ، ترجمة الدكتور فؤاد حسنين على دار النهضة العربية ١٩٤٤ .

ولفنسون (أبو ذؤيب) : تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، القاهرة .

يوسف كرم : تاريخ الفلسفة الحديثة ، دار المعارف بمصر ط ٤ ، ١٩٦٦

الكتب المقدسة :

التوراة

الإنجيل

القرآن

الشعر :

ديوان شوقى

ديوان حافظ

ديوان الرصافى

ديوان الشابى « أغانى الحياة »

ديوان عبد الرحمن الشرقاوى « من أب مصرى وقصائد أخرى »

ديوان على صدقى عبد القادر « أحلام وثورة »

ديوان محمود درويش « عصافير بلا أجنحة »

Adenauer, K , World indivisible, with liberty & Justice New York 1955.

Baillie, J. , Invitation to Pilgrimage, an analysis of Christian belief & Cristian way of life, Penguin Books, 1960.

Bentwich, N. , Israel & her neighbours, a short historical geography, London, 1955.

Hazard, P. , The European Mind 1680 - 1715, Penguin Boojs, 1964.

Marx, K. , Capital, edited by F. Engles, Britannica Great Books, 1952.

Marx. K. & Engels, F., The Holy Family or the Critique of Critical Critique, Moscow, 1956.

Micklem, N. : National Socialism the Roman Cvholic Church, Oxford Univ. press, 1939.

Miur, Ser William, The Coran. its Comgosition & teaching, New York 1896.

Painter, S. , A History of Middle Ages, London, 1966.

Russel, B. : Hist. of Western Philosophy, 7 th ed. 1967.

Toynbee, A. , A study of History, New York 1963.

Zwmer, S. M., The Moslem Doctrine of God, London, 1905.

Encyclopaedia Britannica.

Jewish Encyclopaedia

Encyclopaedia of Islam.

الفهـــرس

صفحة

الفصل الأول
فى
الإســـتعمار

صفحة

الفصل الثانى
فى
الاستشراق

الفصل الثالث
فى
الصهيـــونية

صفحة

مطبعة الوادى بالاسكندرية

شارع ابن زنكى أمام ٢٢

٢/١٠٧٩٦٩

٣٥٠ م

الناشر دار المعارف بمصر ـ ١١١٩ كورنيش النيل
منطقة الاسكندرية ٤٢ شارع سعد زغلول ـ ٢ ميدان التحرير (المنشية)